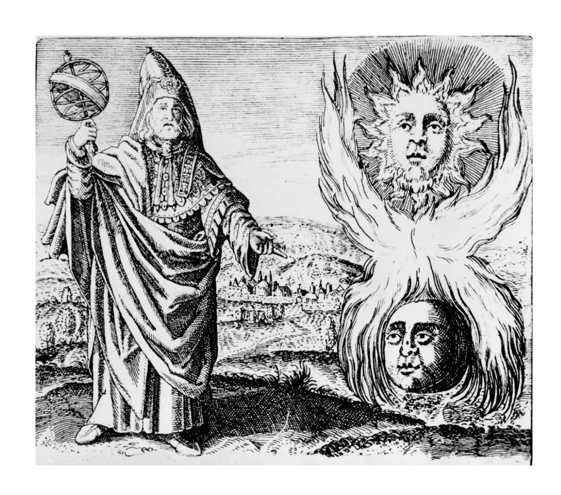
الكيباليون

تأليف: المعلمون الثلاثة

اعداد وترتيب: The Master Library





شعار المكتبة التي قامت بترتيب الكتاب وتنقيحه وتحويله للعربية

تاريخ نشر الكتاب بالعربية: 2025/ تاريخ نشر الكتاب الأصلي: 1908

للتواصل مع القائم على المكتبة: zaidadwan@gmail.com (زيد العدوان)

الفهرس:

مقدمة

يسرنا أن نقدم لطلاب وباحثي العقائد السرية هذا العمل المختصر، المستند إلى التعاليم الهرمسية العريقة. لم يُكتب الكثير عن هذا الموضوع، على الرغم من الإشارات العديدة إلى هذه التعاليم في العديد من الأعمال المتعلقة بالغيبيات، مما يجعل الباحثين الجادين عن الحقائق الخفية سيرحبون بلا شك بظهور هذا المجلد.

ليس الغرض من هذا العمل هو التعبير عن أي فلسفة أو عقيدة خاصة، بل هو إعطاء الطلاب بيانًا للحقيقة يُوفق بين العديد من المعارف الخفية التي ربما اكتسبوها، والتي تبدو متعارضة، وغالبًا ما تُثبط عزيمة المبتدئين في الدراسة وتُثير اشمئزازهم. ليس هدفنا تشييد معبد جديد للمعرفة، بل وضع مفتاح رئيسي بين يدي الطالب ليفتح به الأبواب الداخلية العديدة في معبد الغموض من خلال البوابات الرئيسية التي دخلها بالفعل.

لا يوجد جزء من التعاليم الخفية التي يمتلكها العالم محفوظة بعناية فائقة مثل شذرات التعاليم الهرمسية التي وصلت إلينا على مدى عشرات القرون التي انقضت منذ حياة مؤسسها العظيم، هرمس تريسميغستوس، "كاتب الآلهة"، الذي سكن مصر القديمة في الأيام التي كان فيها الجنس البشري الحالي في طفولته. معاصرًا لإبراهيم، وإذا صحت الأساطير، فهو معلم ذلك الحكيم الجليل، هرمس كان ولا يزال الشمس المركزية العظيمة لعلم الخفاء، التي أضاءت أشعتها التعاليم التي لا تُحصى التي نُشرت منذ عصره. جميع التعاليم الأساسية والأساسية المُضمنة في التعاليم الباطنية لكل عرق يُمكن إرجاعها إلى هرمس. حتى أقدم التعاليم الهندية لا شك أن لها جذورها في التعاليم الهرمسية الأصلية.

من أرض نهر الغانج، هاجر العديد من علماء الباطن المتقدمين إلى أرض مصر، وجلسوا عند قدمي المعلم. منه حصلوا على المفتاح الرئيسي الذي شرح ووفق بين آرائهم المتباينة، وهكذا ترسخت العقيدة السرية. من بلدان أخرى أيضًا جاء العلماء، الذين اعتبروا جميعًا هرمس معلمًا للأساتذة، وكان تأثيره عظيمًا لدرجة أنه على الرغم من التشتتات العديدة التي قام بها المعلمون على مر القرون في هذه الأراضي المختلفة، لا يزال هناك تشابه وتوافق أساسيان يكمنان وراء النظريات العديدة، والتي غالبًا ما تكون متباينة، والتي يتبناها ويُدرّسها علماء الباطنية في هذه الأراضي المختلفة اليوم. سيتمكن طالب مقارنة الأديان من إدراك تأثير التعاليم الهرمسية في كل دين جدير بهذا الاسم، معروف للبشرية الآن، سواء أكان دينًا ميتًا أم دينًا في أوج قوته في عصرنا. هناك دائمًا توافق معين على الرغم من السمات المتناقضة، وتعمل التعاليم الهرمسية كمُصالح عظيم. يبدو أن عمل هرمس طوال حياته كان في اتجاه غرس بذرة الحقيقة العظيمة التي نمت وازدهرت بأشكال غريبة عديدة، بدلاً من إنشاء مدرسة فلسفية تسيطر على فكر العالم. ومع ذلك، فقد حافظت قلة من الرجال في كل عصر على الحقائق الأصلية التي علمها

سليمة في نقائها الأصلي، رافضين أعدادًا كبيرة من الطلاب والأتباع غير المكتملين، واتبعوا العرف الهرمسي واحتفظوا بحقيقتهم للقلة المستعدة لفهمها وإتقانها. من الشفاه إلى الأذن انتقلت الحقيقة بين القلة. لطالما وُجد في كل جيل، في مختلف بقاع الأرض، قلة من المبتدئين الذين حافظوا على شعلة التعاليم الهرمسية المقدسة، وكانوا دائمًا على استعداد لاستخدام مصابيحهم لإعادة إشعال مصابيح العالم الخارجي الأقل أهمية، عندما خفت نور الحقيقة، واكتسى بالغمام بسبب الإهمال، وعندما انسدت فتائلها بالمواد الغريبة. كان هناك دائمًا قلة ممن يرعون بإخلاص مذبح الحقيقة، الذي يُضاء عليه مصباح الحكمة الأبدي. كرس هؤلاء الرجال حياتهم لعمل الحب الذي عبر عنه الشاعر ببراعة في أبياته: "يا إلهي، لا تدع اللهب ينطفئ! عزيزًا على مر العصور في كهفه المظلم - في معابده المقدسة، عزيزًا. يغذيه خدام الحب الأطهار - لا تدع اللهب ينطفئ."!

لم يسعَ هؤلاء الرجال قط إلى استحسان شعبي، ولا إلى أعداد من الأتباع.

إنهم لا يبالون بهذه الأمور، لأنهم يعلمون قلة من هم في كل جيل مستعدون لقبول الحقيقة، أو من سيعترفون بها لو عُرضت عليهم. إنهم يخصصون "الطعام القوي للرجال"، بينما يُقدم آخرون "الحليب للأطفال". إنهم يخصصون لآلئ حكمتهم للقلة المختارة، الذين يدركون قيمتها ويزينونها بتاجهم، بدلاً من إلقائها أمام الخنازير المادية المبتذلة، الذين سيدوسونها في الوحل ويخلطونها بغذائهم العقلي المقزز. ومع ذلك، لم ينس هؤلاء الرجال أبدًا لقد أغفلوا تعاليم هرمس الأصلية، المتعلقة بنقل كلمات الحق إلى المستعدين لتلقيها، والتي وردت في كتاب "الكيباليون" على النحو التالي: "حيثما تقع خطوات المعلم، تنفتح آذان المستعدين لتلقي تعليمه". ومرة أخرى: "عندما تكون آذان الطالب مستعدة للسماع، تأتي الشفاه لتملأها بالحكمة". لكن موقفهم المعتاد كان دائمًا متوافقًا تمامًا مع القول المأثور الهرمسي الآخر، الوارد أيضًا في كتاب "الكيباليون": "شفاه الحكمة مغلقة، إلا عن آذان الفهم."

هناك من انتقد هذا الموقف من الهرمسيين، وزعموا أنهم لم يُظهروا الروح السليمة في سياستهم المتمثلة في العزلة والتكتم. لكن نظرة سريعة إلى الوراء على صفحات التاريخ ستُظهر حكمة المعلمين، الذين أدركوا حماقة محاولة تعليم العالم ما لم يكن مستعدًا أو راغبًا في تلقيه. لم يسعَ الهرمسيون قط إلى الاستشهاد، بل جلسوا جانبًا صامتين بابتسامة شفقة على شفاههم المغلقة، بينما كان "الوثنيون يثورون عليهم بصخب" في تسلية معتادة على قتل وتعذيب المتحمسين الشرفاء، وإن كانوا مضللين، والذين ظنوا أنهم يستطيعون فرض الحقيقة على شعب من البرابرة، والتي لا يفهمها إلا المختارون الذين ساروا على الدرب.

ولم تختفِ روح الاضطهاد بعد في البلاد. فهناك بعض التعاليم الهرمسية، التي إذا نُشرت علنًا، ستجلب على معلميها صرخة ازدراء وشتائم من الجماهير، الذين سيرفعون مرة أخرى صرخة "اصلبه! اصلبه."

في هذا العمل المختصر، سعينا جاهدين لإعطائكم فكرة عن التعاليم الأساسية للكيباليون، ساعيين لإعطائكم المبادئ العملية، تاركين لكم تطبيقها بأنفسكم، بدلاً من محاولة استنباط التعاليم بالتفصيل. إذا كنتم طلابًا حقيقيين، فستتمكنون من استنباط هذه المبادئ وتطبيقها - وإلا، فعليكم تطوير أنفسكم لتصبحوا واحدًا منها، وإلا ستكون التعاليم الهرمسية مجرد "كلمات، كلمات، كلمات" بالنسبة لكم.

المبتدئون الثلاثة.

الفصل الأول: الفلسفة الهرمسية

"شفاه الحكمة مغلقة، إلا عن آذان الفهم" - الكيباليون.

من مصر القديمة، جاءت التعاليم الباطنية والغامضة الأساسية

التي أثرت بشدة على فلسفات جميع الأعراق والأمم والشعوب، لآلاف السنين. كانت مصر، موطن الأهرامات وأبو الهول، مهد الحكمة الخفية والتعاليم الصوفية. ومن عقيدتها السرية، استعارت جميع الأمم. فقد شاركت الهند، وبلاد فارس، والكلدانية، والمدية، والصين، واليابان، وآشور، واليونان القديمة، وروما، وغيرها من البلدان القديمة، بسخاء في وليمة المعرفة التي أعدّها كهنة وأساتذة أرض إيزيس بسخاء لمن جاءوا مستعدين للمشاركة في هذا الكنز الهائل من المعارف الصوفية والغيبية التي جمعها مدبرو تلك الأرض القديمة.

في مصر القديمة، سكن كبار الأتباع والأساتذة الذين لم يُضاهَوا قط، ونادرًا ما يضاهيهم أحد، على مر القرون التي انطلقت منذ أيام هرمس العظيم. وفي مصر، كان يقع المحفل الأعظم لمحافل الصوفيين. عند أبواب معابدها، دخل المبتدئون الذين جابوا، ككهنة ومريدين ومعلمين، أنحاء الأرض الأربعة، حاملين معهم المعرفة الثمينة التي كانوا مستعدين، وراغبين، وراغبين في نقلها إلى من كانوا مستعدين لتلقيها. جميع طلاب علم الغيب يدركون الفضل الذي يدينون به لهؤلاء المعلمين الجليلين في تلك الأرض القديمة.

ولكن بين هؤلاء المعلمين العظام في مصر القديمة، عاش واحدٌ منهم، أشاد به المعلمون باعتباره "معلم المعلمين". هذا الرجل، إن كان "إنسانًا" حقًا، فقد سكن مصر في العصور الأولى. كان يُعرف باسم هرمس تريسميجيستوس. كان أبو الحكمة الخفية؛ ومؤسس علم التنجيم؛ ومكتشف الخيمياء. ضاعت تفاصيل قصة حياته في التاريخ، مع مرور السنين، على الرغم من أن العديد من الدول القديمة تتنازع فيما بينها على ادعاء شرف توفير مسقط رأسه - وهذا منذ آلاف السنين. تاريخ إقامته في مصر، أي آخر تجسد له على هذا الكوكب، غير معروف الآن، ولكنه حُدد في الأيام الأولى لأقدم سلالات مصر - قبل أيام موسى بوقت طويل. يعتبره أفضل المراجع معاصرًا لإبراهيم، وتذهب بعض التقاليد اليهودية إلى حد الادعاء بأن إبراهيم اكتسب جزءًا من معرفته الصوفية من هرمس نفسه. ومع مرور السنين بعد رحيله عن هذا المستوى من الحياة (حيث تُسجل التقاليد أنه عاش ثلاثمائة عام في الجسد)، أله المصريون هرمس، وجعلوه أحد آلهتهم، تحت اسم تحوت. بعد سنوات، جعله شعب اليونان القديمة أيضًا أحد آلهتهم العديدة، فأطلقوا عليه اسم "هيرمس، إله الحكمة". وقد بجلّ المصريون ذكراه لكثرة حكمته.

قرون عديدة - بل عشرات القرون - يُلقِّبونه "كاتب الآلهة"، ويُلقِّبونه، على نحوٍ مُميَّز، بلقبه القديم "تريسمِجيستوس"، الذي يعني "الثلاثي الأعظم"؛ "العظيم الأعظم"؛ "الأعظم الأعظم"؛ إلخ. في جميع الأراضي القديمة، كان اسم هرمس تريسمِجيستوس مُبجَّلاً، إذ يُرادف "ينبوع الحكمة."

وحتى يومنا هذا، نستخدم مصطلح "هرمسي" بمعنى "سرّي"؛ "مُختوم بحيث لا يفلت شيء"؛ إلخ، وذلك لأن أتباع هرمس التزموا دائمًا بمبدأ السرية في تعاليمهم. لم يؤمنوا بـ"إلقاء اللؤلؤ أمام الخنازير"، بل تمسَّكوا بمبدأ "حليب الأطفال"؛ "طعامٌ للرجال الأقوياء"، وكلاهما من المبادئ المألوفة لدى قراء الكتب المقدسة المسيحية، ولكن كلاهما استخدمه المصريون لقرون قبل العصر المسيحي.

ولطالما ميّزت هذه السياسة في نشر الحقيقة بعنايةٍ الهرمسية، حتى يومنا هذا. توجد التعاليم الهرمسية في جميع البلدان، وبين جميع الأديان، ولكنها لم تُعرّف قط بأنها مرتبطة ببلدٍ معين، ولا بطائفة دينية معينة.

ويعود ذلك إلى تحذير المعلمين القدماء من السماح للعقيدة السرية بأن تتبلور في عقيدة. وحكمة هذا التحذير واضحةٌ لجميع دارسي التاريخ. لقد تدهور علم الغيب القديم في الهند وبلاد فارس، وضاع إلى حد كبير، بسبب تحول المعلمين إلى كهنة، وخلطهم اللاهوت بالفلسفة، فكانت النتيجة أن اندثر علم الغيب في الهند وبلاد فارس تدريجيًا وسط سيل من الخرافات الدينية والطوائف والمذاهب و"الآلهة". وهكذا كان الحال مع اليونان القديمة وروما، وكذلك مع التعاليم الهرمسية للغنوصيين والمسيحيين الأوائل، التي اندثرت في عهد قسطنطين، الذي خنق الفلسفة بقبضته الحديدية بغطاء اللاهوت، ففقدت الكنيسة المسيحية جوهرها وروحها، وجعلتها تتلمس طريقها عبر قرون عديدة قبل أن تجد طريق العودة إلى إيمانها القديم، والمؤشرات الواضحة لكل مراقب دقيق في هذا القرن العشرين هي أن الكنيسة تكافح الآن للعودة إلى تعاليمها الصوفية القديمة. لكن كان هناك دائمًا قلة من النفوس المخلصة التي أبقت الشعلة متقدة، ترعاها بعناية، ولا تسمح لنورها بأن ينطفئ. وبفضل هذه القلوب الصامدة، والعقول الشجاعة، ما زالت الحقيقة بين أيدينا. لكنها غائبة عن الكتب، إلى حد كبير. لقد انتقلت من المعلم إلى الطالب؛ من المبتدئ إلى الكاهن الأعظم؛ من الشفاه إلى الأذن. وعندما كُتبت، كان معناها محجوبًا بمصطلحات الكيمياء والتنجيم، بحيث لا يستطيع قراءتها إلا من يملكون المفتاح. وقد كان هذا ضروريًا لتجنب اضطهاد علماء اللاهوت في العصور الوسطى، الذين حاربوا العقيدة السرية بالنار والسيف؛ والخازوق، والمشنقة، والصليب. وحتى يومنا هذا، لا يوجد سوى عدد قليل من الكتب الموثوقة عن الفلسفة الهرمسية، على الرغم من وجود إشارات لا حصر لها إليها في العديد من الكتب التي كُتبت عن مراحل مختلفة من علم الغيب. ومع

ذلك، فإن الفلسفة الهرمسية هي المفتاح الرئيسي الوحيد الذي سيفتح جميع أبواب التعاليم الخفية!

في الأيام الأولى، وُجدت مجموعة من بعض العقائد الهرمسية الأساسية، تُنقل من معلم إلى طالب، وتُعرف باسم "الكيباليون"، وقد فُقد المعنى والمعنى الدقيق للمصطلح لعدة قرون. إلا أن هذه التعاليم معروفة للكثيرين ممن تناقلوها، من فم إلى أذن، على مر العصور. لم تُدوّن مبادئها أو تُطبع، على حد علمنا. كانت مجرد مجموعة من المبادئ والبديهيات والقواعد، التي لم تكن مفهومة للغرباء، ولكن الطلاب فهموها بسهولة، بعد أن شرحها المبتدئون الهرمسيون ومثلوها لطلابهم الجدد. شكّلت هذه التعاليم في الواقع المبادئ الأساسية لـ"فن الكيمياء الهرمسية"، الذي، خلافًا للاعتقاد السائد، تناول إتقان القوى العقلية، بدلًا من العناصر المادية - أي تحويل نوع من الاهتزازات العقلية إلى أنواع أخرى، بدلًا من تغيير نوع من المعادن إلى آخر. كانت أساطير "حجر الفلاسفة" التي ستحوّل المعادن الخسيسة إلى ذهب، رمزًا للفلسفة الهرمسية، يفهمها جميع طلاب الهرمسية الحقيقية بسهولة.

في هذا الكتاب الصغير، الذي يُعدّ هذا الدرس الأول منه، ندعو طلابنا إلى دراسة التعاليم الهرمسية، كما وردت في كتاب "الكيباليون"، وكما شرحناها نحن، طلاب التعاليم المتواضعين، الذين، وإن حملوا لقب المبتدئين، ما زالوا طلابًا عند قدمي هيرمس، المعلم. نقدم لكم هنا العديد من المبادئ والمبادئ والتعاليم الواردة في كتاب الكيباليون، مصحوبة بتفسيرات ورسوم توضيحية نعتقد أنها ستجعل التعاليم أسهل فهمًا للطالب المعاصر، وخاصةً لأن النص الأصلي مُغطى عمدًا بمصطلحات غامضة.

القواعد والمبادئ والمبادئ الأصلية لكتاب "الكيباليون" مطبوعة هنا بخط مائل، مع الأخذ في الاعتبار الفضل المناسب. عملنا مطبوع بالطريقة المعتادة، في متن العمل.

نثق أن الطلاب الكثيرين الذين نقدم لهم هذا العمل المختصر سيستفيدون من دراسة صفحاته بقدر ما استفاد الكثيرون ممن سبقوهم، ساروا على نفس درب الإتقان على مر القرون التي انقضت منذ عهد هرمس تريسميجيستوس - سيد الأساتذة - العظيم. وكما جاء في "الكيباليون:"

"حيثما تقع خطوات المعلم، تنفتح آذان المستعدين لتعاليمه." - الكيباليون.

عندما تكون آذان الطالب مستعدة للسماع، تأتي الشفاه لتملأها بالحكمة. - الكيباليون.

وبالتالي، ووفقًا للتعاليم، فإن تمرير هذا الكتاب إلى المستعدين للتعليم سيجذب انتباه أولئك المستعدين لتلقي التعليم.

وبالمثل، عندما يكون التلميذ مستعدًا لتلقي الحقيقة، سيأتيه هذا الكتاب الصغير. هذا هو القانون.

8

مبدأ السبب والنتيجة الهرمسي، في سياق قانون الجذب، سيجمع الشفاه والأذن معًا - التلميذ والكتاب معًا. فليكن!

9

الفصل الثاني: المبادئ الهرمسية السبعة

"مبادئ الحقيقة سبعة؛ ومن يعرفها بفهم، يمتلك المفتاح السحري الذي بمجرد لمسه تنفتح جميع أبواب الهيكل." - الكيباليون. المبادئ السبعة الهرمسية، التي تقوم عليها الفلسفة الهرمسية بأكملها، هي كما يلي:

1 .مبدأ العقلانية.

2 .مبدأ التطابق.

3 .مبدأ الاهتزاز.

4 .مبدأ القطبية.

5 .مبدأ الإيقاع.

6 .مبدأ السبب والنتيجة.

7 .مبدأ النوع.

سنناقش هذه المبادئ السبعة ونشرحها أثناء تقدمنا في هذه الدروس. مع ذلك، يُمكن تقديم شرح موجز لكل منها في هذه المرحلة.

1 .مبدأ العقلانية

"الكل عقل؛ الكون عقلي." - الكيباليون.

يجسد هذا المبدأ حقيقة أن "الكل عقل". يوضح أن المطلق (وهو الحقيقة الجوهرية الكامنة وراء جميع المظاهر والظواهر الخارجية التي نعرفها تحت مسميات "الكون المادي"؛ و"ظواهر الحياة"؛ و"المادة"؛ و"الطاقة"؛ وباختصار، كل ما هو ظاهر لحواسنا المادية) هو روحٌ في حد ذاته مجهول وغير قابل للتعريف، ولكن يمكن اعتباره والتفكير فيه كعقلٍ حيٍّ كونيٍّ لانهائي. كما يوضح أن العالم الظاهر أو الكون بأكمله هو ببساطة خلقٌ عقليٌّ للمطلق، يخضع لقوانين المخلوقات، وأن الكون، ككلٍّ، وفي أجزائه أو وحداته، له وجوده في عقل المطلق، الذي فيه "نعيش ونتحرك ونوجد". هذا المبدأ، بتأسيسه للطبيعة العقلية للكون، يُفسّر بسهولة جميع الظواهر العقلية والنفسية العشر المتنوعة التي تشغل حيزًا كبيرًا من اهتمام الجمهور، والتي، بدون هذا التفسير، تُصبح غير مفهومة وتتحدى المعالجة العلمية. إن فهم هذا المبدأ الهرمسي العظيم للعقلانية يُمكّن الفرد من استيعاب قوانين الكون العقلي بسهولة، وتطبيقها على رفاهيته وتقدمه. يُمكّن طالب الهرمسية من تطبيق القوانين العقلية العظيمة

بذكاء، بدلًا من استخدامها عشوائيًا. وبامتلاكه المفتاح الرئيسي، يُمكنه فتح أبواب معبد المعرفة العقلية والنفسية العديدة، ودخوله بحرية وذكاء. يُفسّر هذا المبدأ الطبيعة الحقيقية لـ "الطاقة" و"القوة" و"المادة"، ولماذا وكيف تخضع كل هذه لسيطرة العقل. كتب أحد أساتذة الهرمسية القدامى، منذ عصور بعيدة: "من يدرك حقيقة الطبيعة العقلية للكون، يكون قد قطع شوطًا كبيرًا على طريق الإتقان". وهذه الكلمات لا تزال صحيحة اليوم كما كانت وقت كتابتها. فبدون هذا المفتاح الرئيسي، يستحيل الإتقان، ويطرق الطالب أبواب المعبد عبثًا.

2 .مبدأ التطابق

"كما في الأعلى، كذلك في الأسفل؛ كما في الأسفل، كذلك في الأعلى" - الكيباليون.

يجسد هذا المبدأ حقيقة وجود تطابق دائم بين قوانين وظواهر مختلف مستويات الوجود والحياة.

تتمثل البديهية الهرمسية القديمة في هذه الكلمات: "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل؛ كما في الأسفل، كذلك في الأعلى". ويمنح إدراك هذا المبدأ المرء وسيلةً لحل العديد من المفارقات المظلمة، وأسرار الطبيعة الخفية. هناك أبعادٌ تتجاوز معرفتنا، ولكن عندما نطبق مبدأ التوافق عليها، نتمكن من فهم الكثير مما كان ليُدرك لولا ذلك.

هذا المبدأ ذو تطبيق وتجلٍّ عالمي، على مختلف أبعاد الكون المادي والعقلي والروحي - إنه قانون كوني.

اعتبر الهرمسيون القدماء هذا المبدأ من أهم الأدوات العقلية التي مكّنت الإنسان من تجاوز العقبات.

الذي حجب عن الأنظار المجهول. حتى أن استخدامه مزق حجاب إيزيس لدرجة أنه أمكن التقاط لمحة من وجه الإلهة. وكما أن معرفة مبادئ الهندسة تُمكّن الإنسان من قياس الشموس البعيدة وحركاتها، وهو جالس في مرصده، فإن معرفة مبدأ التطابق تُمكّن الإنسان من التفكير بذكاء من المعلوم إلى المجهول. بدراسة الموناد، يفهم الإنسان رئيس الملائكة.

3 .مبدأ الاهتزاز

"لا شيء يستقر؛ كل شيء يتحرك؛ كل شيء يهتز." - الكيباليون.

يجسد هذا المبدأ حقيقة أن "كل شيء في حركة"؛ "كل شيء يهتز"؛ "لا شيء ساكن"؛ حقائق يُقرّها العلم الحديث، ويميل كل اكتشاف علمي جديد إلى تأكيدها. ومع ذلك، فقد صاغ هذا المبدأ الهرمسي منذ آلاف السنين، على يد سادة مصر القديمة. يوضح هذا المبدأ أن الاختلافات بين المظاهر المختلفة للمادة والطاقة والعقل، وحتى الروح، تنتج إلى حد كبير عن اختلاف

معدلات الاهتزاز. من المطلق، وهو الروح الخالصة، وصولاً إلى أضخم أشكال المادة، كل شيء في حالة اهتزاز - كلما ارتفع الاهتزاز، ارتفع موقعه في المقياس. يبلغ اهتزاز الروح معدلًا لا نهائيًا من الشدة والسرعة لدرجة أنه يكاد يكون في حالة سكون - تمامًا كما تبدو العجلة المتحركة بسرعة وكأنها ساكنة. وفي الطرف الآخر من المقياس، توجد أشكال هرمية من المادة تكون اهتزازاتها منخفضة جدًا لدرجة أنها تبدو في حالة سكون. بين هذين القطبين، توجد ملايين وملايين من درجات الاهتزاز المتفاوتة. من الجسيم والإلكترون، والذرة والجزيء، إلى العوالم والكون، كل شيء في حركة اهتزازية. ينطبق هذا أيضًا على مستويات الطاقة والقوة (والتي هي درجات متفاوتة من الاهتزاز)؛ وكذلك على المستويات العقلية (التي تعتمد حالاتها على الاهتزازات)؛ وحتى على المستويات الروحية. إن فهم هذا المبدأ، مع الصيغ المناسبة، يُمكّن طلاب الهرمسية من التحكم في اهتزازاتهم العقلية وكذلك اهتزازات الآخرين. كما يُطبق الأساتذة هذا المبدأ على قهر الظواهر الطبيعية، بطرق مختلفة. يقول أحد الكُتّاب القدامى: "من يفهم مبدأ الاهتزاز، فقد أمسك بصولجان القوة."

4 .مبدأ القطبية

"كل شيء ثنائي؛ لكل شيء أقطاب؛ لكل شيء زوج من الأضداد؛ المتشابه والمختلف متماثلان؛ الأضداد متطابقة في طبيعتها، لكنها مختلفة في درجتها؛ تلتقي الأطراف؛ كل الحقائق ليست سوى أنصاف حقائق؛ يمكن التوفيق بين جميع المفارقات." - الكيباليون. ١٢

يجسد هذا المبدأ حقيقة أن "كل شيء ثنائي"؛ "لكل شيء قطبان"؛ "لكل شيء زوج من الأضداد"، وجميعها كانت من البديهيات الهرمسية القديمة. وهو يفسر المفارقات القديمة التي حيرت الكثيرين، والتي وردت على النحو التالي: "الأطروحة ونقيضها متطابقان في طبيعتهما، لكنهما مختلفان في الدرجة"؛ "الأضداد متماثلة، تختلف في الدرجة فقط"؛ "يمكن التوفيق بين أزواج الأضداد"؛ "تلتقي الأطراف"؛ "كل شيء موجود وغير موجود في الوقت نفسه"؛ "كل الحقائق ليست سوى أنصاف حقائق"؛ "كل حقيقة نصفها باطل"؛ "لكل شيء وجهان"، إلخ، إلخ، إلخ.

يوضح هذا أن لكل شيء قطبين، أو جانبين متقابلين، وأن "الأضداد" ما هي إلا طرفي الشيء نفسه، بدرجات متفاوتة عديدة بينهما. على سبيل المثال: الحرارة والبرودة، على الرغم من كونهما "متضادين"، هما في الواقع الشيء نفسه، والاختلافات بينهما مجرد درجات من الشيء نفسه. انظر إلى مقياس الحرارة لديك وانظر إن كان بإمكانك اكتشاف أين تنتهي "الحرارة" ويبدأ "البرودة"! لا يوجد ما يُسمى "حرارة مطلقة" أو "برودة مطلقة" - مصطلحا "حرارة" و"برودة" يشيران ببساطة إلى درجات متفاوتة من الشيء نفسه، وأن "الشيء نفسه" الذي يتجلى في "حرارة" و"برودة" هو مجرد شكل وتنوع ومعدل للاهتزاز. إذن، "الحرارة"

و"البرودة" هما ببساطة "قطبا" ما نسميه "حرارة"، والظواهر المصاحبة لهما هي تجليات لمبدأ القطبية. يتجلى المبدأ نفسه في حالة "النور والظلام"، وهما الشيء نفسه، والفرق بينهما يكمن في درجات متفاوتة. أين ينتهي "الظلام" ويبدأ "النور"؟ ما الفرق بين "الكبير والصغير"؟ بين "الصلبة واللينة"؟ بين "الأسود والأبيض"؟ بين "الحاد والخافت"؟ بين "الضجيج والهدوء"؟ بين "العالي والمنخفض"؟ بين "الإيجابي والسالب"؟ يفسر مبدأ القطبية هذه المفارقات، ولا يمكن لأي مبدأ آخر أن يحل محله. يعمل المبدأ نفسه على المستوى العقلي. لنأخذ مثالاً جذرياً ومتطرفاً - مثال "الحب والكراهية"، حالتان عقليتان مختلفتان تماماً ظاهرياً. ومع ذلك، هناك درجات من الكراهية ودرجات من الحب، ونقطة وسطى نستخدم فيها مصطلحي "الإعجاب أو الكراهية"، واللذين يتداخلان تدريجيًا لدرجة أننا أحيانًا نعجز عن معرفة ما إذا كنا "نُعجب" أو "نكره" أو "لا هذا ولا ذاك". وكلها ببساطة درجات من الشيء نفسه، كما سترون.

لو فكرتم للحظة. بل وأكثر من ذلك (والذي يعتبره الهرمسيون أكثر أهمية)، من الممكن تحويل ذبذبات الكراهية الثلاثة عشر إلى ذبذبات الحب، في عقولنا وفي عقول الآخرين. كثير منكم، ممن يقرأون هذه السطور، قد مروا بتجارب شخصية مع التحول السريع اللاإرادي من الحب إلى الكراهية، والعكس، في حالتكم وحالة الآخرين. وستدركون بالتالي إمكانية تحقيق ذلك باستخدام الإرادة، من خلال الصيغ الهرمسية. "الخير والشر" ليسا سوى قطبين لنفس الشيء، والهرمسيون يفهمون فن تحويل الشر إلى خير، من خلال تطبيق مبدأ القطبية. باختصار، يصبح "فن الاستقطاب" مرحلة من "الكيمياء العقلية" التي عرفها ومارسها أساتذة الهرمسية القدماء والمعاصرون. إن فهم المبدأ يُمكّن المرء من تغيير قطبيته، وكذلك قطبية الآخرين، إذا كرّس الوقت والدراسة اللازمين لإتقان هذا الفن.

5 .مبدأ الإيقاع

"كل شيء يتدفق، للخارج وللداخل؛ لكل شيء مده وجزره؛ كل شيء يرتفع وينخفض؛ يتجلى تأرجح البندول في كل شيء؛ مقدار التأرجح إلى اليمين هو مقدار التأرجح إلى اليسار؛ الإيقاع يُعوّض." - الكيباليون.

يُجسّد هذا المبدأ حقيقة أن في كل شيء حركة مُقاسة، ذهابًا وإيابًا؛ تدفقًا وتدفقًا؛ تأرجحًا للأمام والخلف؛ حركة تشبه حركة البندول؛ مد وجزر يشبهان المد والجزر؛ مد وجزر؛ بين القطبين اللذين يوجدان وفقًا لمبدأ القطبية الذي وُصف قبل قليل. هناك دائمًا فعل ورد فعل؛ تقدم وتراجع؛ صعود وهبوط. هذا ينطبق على شؤون الكون، والشموس، والعوالم، والبشر، والحيوانات، والعقل، والطاقة، والمادة. يتجلى هذا القانون في خلق العوالم وتدميرها؛ وفي صعود الأمم وسقوطها؛ وفي حياة كل شيء؛ وأخيرًا في الحالات العقلية للإنسان (ومن خلال

هذه الأخيرة يجد الهرمسيون أن فهم المبدأ هو الأهم). لقد أدرك الهرمسيون هذا المبدأ، ووجدوا تطبيقه الشامل، واكتشفوا أيضًا وسائل معينة للتغلب على آثاره في أنفسهم باستخدام الصيغ والأساليب المناسبة. إنهم يطبقون قانون التحييد العقلي. لا يمكنهم إلغاء المبدأ، أو إيقافه عن العمل، لكنهم تعلموا كيفية تجنب آثاره عليهم إلى حد ما اعتمادًا على إتقان المبدأ. لقد تعلموا كيفية استخدامه، بدلاً من أن يستخدمهم. في هذه الأساليب وما شابهها، يكمن فن الهرمسيين. يُستقطب سيد الهرمسية نفسه عند النقطة التي يرغب فيها بالاستراحة، ثم يُحيّد التأرجح الإيقاعي للبندول الذي يميل إلى حمله إلى القطب الآخر. جميع الأفراد الذين بلغوا درجةً من ضبط النفس يفعلون ذلك إلى حدٍّ ما، بشكلٍ أو بآخر، لكن السيد يفعل ذلك بوعي، وباستخدام إرادته، ويصل إلى درجة من الاتزان والثبات العقلي يكاد يكون من المستحيل تصديقها من قِبل الجماهير التي تتأرجح ذهابًا وإيابًا كالبندول. وقد درس الهرمسية هذا المبدأ ومبدأ القطبية عن كثب، وتُشكّل أساليب مواجهتهما وتحييدهما واستخدامهما جزءًا مهمًا من الكيمياء العقلية الهرمسية. ٦. مبدأ السبب والنتيجة

"لكل سببٍ نتيجة، ولكل نتيجة سببها، وكل شيء يحدث وفقًا لقانون؛ والصدفة ليست سوى اسمٍ لقانونٍ غير مُعترف به؛ فهناك مستوياتٌ عديدةٌ للسببية، ولكن لا شيء يفلت من القانون." - الكيباليون.

يُجسّد هذا المبدأ حقيقة وجود سببٍ لكل نتيجة؛ ونتيجةٍ من كل سبب. ويوضح أن: "كل شيء يحدث وفقًا لقانون"؛ وأن لا شيء يحدث "بمجرد حدوثه"؛ وأنه لا وجود لما يُسمى بالصدفة؛ وأنه بينما توجد مستوياتٌ مُختلفةٌ للسبب والنتيجة، حيث يُسيطر المستوى الأعلى على المستويات الأدنى، فلا شيء يفلت تمامًا من القانون. يفهم الهرمسيون فنّ وأساليب الارتقاء فوق المستوى العادي للسبب والنتيجة، إلى حدٍّ ما، وبالارتقاء عقليًا إلى مستوى أعلى، يُصبحون مُسببين بدلًا من أن يكونوا نتائج. ينقاد عامة الناس، مُطيعين للبيئة؛ وإرادات ورغبات الآخرين أقوى منهم؛ الوراثة؛ والإيحاء؛ وغيرها من الأسباب الخارجية التي تحركهم كبيادق على رقعة شطرنج الحياة. لكن الأسياد، بارتفاعهم إلى المستوى الأعلى، يسيطرون على مزاجهم وشخصياتهم وصفاتهم وقواهم، بالإضافة إلى البيئة المحيطة بهم، ويصبحون محركين بدلًا من بيادق. إنهم يساعدون في لعب لعبة الحياة، بدلًا من أن تُلعب بهم وتُحركهم إرادات وبيئة أخرى. إنهم يستخدمون المبدأ بدلًا من أن يكونوا أدواته. يلتزم الأسياد بأسباب المستويات العليا، لكنهم يساعدون في الحكم على مستواهم الخاص. في هذا البيان، ثمة ثروة من المعرفة الهرمسية المكثفة - فليقرأها من يستطيع.

15

7. مبدأ الجندر

"الجندر موجود في كل شيء؛ لكل شيء مبادئه المذكر والمؤنث؛ يتجلى الجندر في جميع المستويات." - الكيباليون.

يجسد هذا المبدأ حقيقة وجود الجندر متجليًا في كل شيء - المبادئ المذكر والمؤنث فاعلة دائمًا. هذا لا ينطبق فقط على المستوى المادي، بل على المستويات العقلية وحتى الروحية. على المستوى المادي، يتجلى المبدأ في شكل جنس، وفي المستويات العليا يتخذ أشكالًا أسمى، لكن المبدأ يبقى هو نفسه دائمًا. لا يمكن خلق أي شيء، جسديًا كان أم عقليًا أم روحيًا، بدون هذا المبدأ. إن فهم قوانينه سيلقي الضوء على العديد من المواضيع التي حيرت عقول البشر. مبدأ الجندر يعمل دائمًا في اتجاه التكاثر والتجديد والخلق. كل شيء، وكل شخص، يحتوي على العنصرين أو المبدأين، أو هذا المبدأ العظيم، بداخله، هو أو هي. كل شيء ذكري له عنصر أنثوي أيضًا؛ كل أنثى تحمل أيضًا مبدأ الذكر. إذا أردتَ فهم فلسفة الخلق والتناسل والتجديد العقلي والروحي، فعليك فهم هذا المبدأ الهرمسي ودراسته. فهو يحتوي على حلٍّ للعديد من أسرار الحياة. نحذرك من أن هذا المبدأ لا علاقة له بالعديد من النظريات والتعاليم والممارسات الشهوانية الدنيئة والخبيثة والمهينة، التي تُدرّس تحت عناوين خيالية، والتي تُمثّل بغاءً للمبدأ الطبيعي العظيم للجنس. تميل هذه الإحياءات الدنيئة للأشكال القديمة سيئة السمعة من الفحولة إلى تدمير العقل والجسد والروح، وقد دأبت الفلسفة الهرمسية على تحذير هذه التعاليم المنحطة التي تميل إلى الشهوة والفجور وتحريف مبادئ الطبيعة. إذا كنت تسعى وراء مثل هذه التعاليم، فعليك البحث عنها في مكان آخر - فالهرمسية لا تحتوي لك على أي شيء من هذا القبيل. بالنسبة للطاهرين، كل شيء طاهٍ؛ إلى القاعدة، كل الأشياء قاعدة.

الفصل الثالث: التحويل العقلي

"يمكن تحويل العقل (وكذلك المعادن والعناصر) من حالة إلى حالة، من درجة إلى درجة، من حالة إلى حالة، من قطب إلى قطب، من اهتزاز إلى اهتزاز. التحويل الهرمسي الحقيقي هو فن عقلي." - الكيباليون.

كما ذكرنا، كان الهرمسيون هم الخيميائيون والمنجمون وعلماء النفس الأوائل، وكان هرمس مؤسس هذه المدارس الفكرية. من علم التنجيم نشأ علم الفلك الحديث؛ ومن الخيمياء نشأ الكيمياء الحديثة؛ ومن علم النفس الصوفي نشأ علم النفس الحديث للمدارس. ولكن لا يجب الافتراض أن القدماء كانوا يجهلون ما تفترضه المدارس الحديثة أنه ملكهم الحصري والخاص. تُظهر السجلات المحفورة على أحجار مصر القديمة بشكل قاطع أن القدماء كانوا يتمتعون بمعرفة شاملة وكاملة بعلم الفلك، ويُظهر بناء الأهرامات بحد ذاته الصلة بين تصميمها ودراسة علم الفلك. كما أنهم لم يكونوا جاهلين بالكيمياء، إذ تُظهر شذرات الكتابات القديمة أنهم كانوا على دراية بالخصائص الكيميائية للأشياء؛ بل إن النظريات القديمة المتعلقة بالفيزياء تُثبت تدريجيًا من خلال أحدث اكتشافات العلم الحديث، ولا سيما تلك المتعلقة بتركيب المادة. ولا ينبغي الافتراض أنهم كانوا يجهلون ما يُسمى بالاكتشافات الحديثة في علم النفس - بل على العكس، كان المصريون بارعين بشكل خاص في علم النفس، وخاصةً في الفروع التي تتجاهلها المدارس الحديثة، والتي تُكتشف مع ذلك تحت اسم "علم النفس" الذي يُحيّر علماء النفس اليوم، ويجعلهم يُقرّون على مضض بأنه "قد يكون فيه شيء ما في النهاية."

والحقيقة هي أنه تحت الكيمياء المادية وعلم الفلك وعلم النفس (أي علم النفس في مرحلته "العمل الدماغي")، امتلك القدماء معرفةً بعلم الفلك المتسامي، ويُسمى علم التنجيم؛ وبالكيمياء المتسامية، ويُسمى الخيمياء؛ وبعلم النفس المتسامي، ويُسمى علم النفس الصوفي. لقد امتلكوا المعرفة الباطنية بالإضافة إلى المعرفة الخارجية، وهذه الأخيرة وحدها يمتلكها علماء العصر الحديث. من بين فروع المعرفة السرية العديدة التي امتلكها الهرمسيون السبعة عشر، كان هناك ما يُعرف بالتحويل الذهني، وهو موضوع هذا الدرس. يُستخدم مصطلح "التحويل" عادةً للدلالة على الفن القديم لتحويل المعادن - وخاصةً المعادن الخسيسة إلى ذهب. تعني كلمة "تحويل" "التحول من طبيعة أو شكل أو مادة إلى أخرى؛ التحويل" (ويبستر). وبالتالي، فإن "التحويل الذهني" يعني فن تغيير وتحويل الحالات الذهنية والأشكال والظروف إلى أخرى. لذا، قد ترى أن التحويل الذهني هو "فن الكيمياء الذهنية"، إذا أعجبك المصطلح - وهو شكل من أشكال علم النفس الصوفي العملي.

ولكن هذا يعني أكثر بكثير مما يبدو ظاهريًا. إن التحويل، أو الخيمياء، أو الكيمياء على المستوى العقلي، مهمٌ بما يكفي في آثاره، بلا شك، ولو توقف هذا الفن عند هذا الحد، لظلّ أحد أهم فروع الدراسة المعروفة للإنسان. لكن هذه ليست سوى البداية. دعونا نرى لماذا!

أول المبادئ السبعة الهرمسية هو مبدأ العقلانية، ومبدئه "الكل عقل؛ والكون عقلي"، مما يعني أن الحقيقة الكامنة وراء الكون هي العقل؛ والكون نفسه عقلي - أي "موجود في عقل الكل". سنتناول هذا المبدأ في الدروس اللاحقة، ولكن دعونا نرى تأثير المبدأ إذا افترضنا صحته.

إذا كان الكون عقليًا بطبيعته، فإن التحويل العقلي يجب أن يكون فن تغيير ظروف الكون، على غرار المادة والقوة والعقل. نرى إذًا أن التحويل الذهني هو في الواقع "السحر" الذي كثر الحديث عنه في أعمال الكُتّاب القدماء، ولم يُقدّموا عنه سوى القليل من التوجيهات العملية. إذا كان كل شيء ذهنيًا، فإن الفن الذي يُمكّن المرء من تحويل الحالات الذهنية يجب أن يجعل المعلم مُتحكمًا في الحالات المادية، بالإضافة إلى تلك التي تُسمى عادةً "ذهنية". في الواقع، لم يتمكن أحد سوى الكيميائيين الذهنيين المتقدمين من بلوغ درجة القوة اللازمة للتحكم في الحالات الفيزيائية الأكثر فظاظة، مثل التحكم في عناصر الطبيعة؛ وتكوين العواصف أو إيقافها؛ وتكوين الزلازل وإيقافها، وغيرها من الظواهر الفيزيائية العظيمة. لكن وجود هؤلاء الرجال، ووجودهم اليوم، هو مسألة إيمان راسخ لدى جميع علماء الباطنية المتقدمين من جميع المدارس. إن وجود المعلمين، وامتلاكهم لهذه القوى، هو ما يُؤكده أفضل المعلمين لطلابهم، بعد أن خاضوا تجارب تُبرر لهم هذا الاعتقاد وهذه الأقوال. هؤلاء الأساتذة لا يُظهرون قدراتهم علنًا، بل يسعون إلى الانعزال عن حشود البشر، ليُحسنوا استخدام قوتهم على طريق الإدراك. نذكر وجودهم هنا فقط لنُعرّفكم على انتبه إلى حقيقة أن قوتهم عقلية بالكامل، وتعمل على غرار التحول العقلي الأعلى، بموجب المبدأ الهرمسي للعقلانية.

"الكون عقلي" - الكيباليون.

لكن الطلاب والهرمسيين من درجة أقل من الأساتذة - المبتدئين والمعلمين - قادرون على العمل بحرية على طول المستوى العقلي، في التحول العقلي. في الواقع، كل ما نسميه "ظواهر نفسية"، و"تأثير عقلي"، و"علم عقلي"، و"ظواهر فكرية جديدة"، إلخ، يعمل على نفس الخطوط العامة، لأنه لا يوجد سوى مبدأ واحد متضمن، بغض النظر عن الاسم الذي تُسمى به الظواهر.

يعمل طالب وممارس التحول العقلي ضمن المستوى العقلي، محولاً الحالات والحالات العقلية، إلخ، إلى أخرى، وفقًا لصيغ مختلفة، متفاوتة الفعالية. إن مختلف "المعالجات" و"التأكيدات" و"النفيات" وغيرها من مدارس العلوم العقلية ليست سوى صيغ، غالبًا ما تكون ناقصة وغير

علمية، للفن الهرمسي. يجهل غالبية الممارسين المعاصرين تمامًا مقارنةً بالأساتذة القدماء، إذ يفتقرون إلى المعرفة الأساسية التي يقوم عليها هذا العمل.

لا يقتصر الأمر على إمكانية تغيير أو تحويل الحالات العقلية، وما إلى ذلك، للذات من خلال الطرق الهرمسية؛ بل قد تتغير أيضًا، بل وتتغير، باستمرار، بنفس الطريقة، عادةً دون وعي، ولكن غالبًا بوعي من خلال فهم بعض القوانين والمبادئ، في الحالات التي لا يكون فيها الأشخاص المتأثرون على دراية بمبادئ حماية الذات. وأكثر من ذلك، وكما يعلم العديد من طلاب وممارسي العلوم العقلية الحديثة، فإن كل حالة مادية تعتمد على عقول الآخرين يمكن أن تتغير أو تتحول وفقًا للرغبة الصادقة والإرادة و"المعالجات" للشخص الراغب في تغيير ظروف حياته.

يتمتع الجمهور بمعرفة واسعة بهذه الأمور حاليًا، لدرجة أننا لا نرى ضرورة لذكرها بإسهاب، فهدفنا في هذه المرحلة هو مجرد توضيح المبدأ والفن الهرمسي الكامن وراء كل هذه الأشكال المختلفة من الممارسات، الخير والشر، إذ يمكن استخدام القوة في اتجاهات متعاكسة وفقًا للمبادئ الهرمسية للتناقض.

في هذا الكتاب الصغير، سنذكر المبادئ الأساسية للتحول العقلي، حتى يتمكن كل من يقرأ من فهم المبادئ الأساسية، وبالتالي امتلاك المفتاح الرئيسي الذي سيفتح أبواب مبدأ التناقض العديدة.

سننتقل الآن إلى دراسة أول المبادئ السبعة الهرمسية - مبدأ العقلانية، الذي يُشرح فيه حقيقة أن "الكل هو العقل؛ والكون عقلي"، على حد تعبير الكيباليون. نرجو من طلابنا الاهتمام الدقيق والدراسة المتأنية لهذا المبدأ العظيم، لأنه في الواقع المبدأ الأساسي للفلسفة الهرمسية برمّتها، وللفن الهرمسي للتحويل العقلي.

٢٠

الفصل الرابع: الكل

"تحت، وخلف، كون الزمان والمكان والتغير، يكمن دائمًا الواقع الجوهري - الحقيقة الأساسية." - الكيباليون.

"الجوهر" يعني: "ما يكمن وراء جميع المظاهر الخارجية؛ الجوهر؛ الحقيقة الجوهرية؛ الشيء في ذاته"، إلخ. "الجوهر" يعني: "موجود بالفعل؛ كونه العنصر الأساسي؛ كونه حقيقيًا"، إلخ. "الواقع" يعني: "حالة كونه حقيقيًا؛ صحيحًا، ثابتًا، صالحًا، ثابتًا، دائمًا؛ فعليًا"، إلخ.

تحت وخلف جميع المظاهر أو التجليات الخارجية، لا بد أن يكون هناك دائمًا حقيقة جوهرية. هذا هو القانون. عندما ينظر الإنسان إلى الكون، الذي هو جزء منه، لا يرى سوى التغير في المادة والقوى والحالات العقلية. يرى أنه لا يوجد شيء موجود حقًا، بل أن كل شيء في صيرورة وتغير. لا شيء يبقى ثابتًا - كل شيء يولد، ينمو، يموت - في اللحظة التي يصل فيها الشيء إلى ذروته، يبدأ في الانحدار - قانون الإيقاع يعمل باستمرار - لا وجود لحقيقة، أو صفة دائمة، أو ثبات، أو جوهر في أي شيء - لا شيء دائم سوى التغيير. إنه يرى كل الأشياء تتطور من أشياء أخرى، وتتحلل إلى أشياء أخرى - فعل وتفاعل مستمران؛ تدفق وتدفق؛ بناء وهدم؛ خلق وتدمير؛ ولادة ونمو وموت.

لا شيء يدوم سوى التغيير. وإذا كان إنسانًا مفكرًا، فإنه يدرك أن كل هذه الأشياء المتغيرة لا بد أن تكون مظاهر خارجية أو تجليات لقوة كامنة - حقيقة جوهرية.

لقد افترض جميع المفكرين، في جميع البلدان وفي جميع العصور، ضرورة افتراض وجود هذه الحقيقة الجوهرية. وقد استندت جميع الفلسفات الجديرة بهذا الاسم إلى هذه الفكرة. أطلق البشر على هذه الحقيقة الجوهرية أسماءً عديدة، فبعضهم سماها "الإله" (بأسماء متعددة). وآخرون سموها "الطاقة اللانهائية والأبدية"، وحاول آخرون تسميتها "المادة"، لكن الجميع أقرّ بوجودها. إنها بديهية لا تحتاج إلى برهان.

في هذه الدروس، اتبعنا مثال بعض أعظم مفكري العالم، القدماء والمعاصرين، وهم علماء الهرمسية. وقد أطلق عليها أساتذة، ولقد أطلقنا على هذه القوة الكامنة - هذه الحقيقة الجوهرية - الاسم الهرمسي "الكل"، وهو المصطلح الذي نعتبره الأشمل من بين المصطلحات العديدة التي أطلقها الإنسان على ما يتجاوز الأسماء والمصطلحات.

نقبل ونُعلّم وجهة نظر كبار المفكرين الهرمسيين على مر العصور، وكذلك وجهة نظر تلك النفوس المُستنيرة التي بلغت مستويات أعلى من الوجود، وكلاهما يؤكد أن الطبيعة الباطنة للكل غير قابلة للإدراك.

لا بد أن يكون الأمر كذلك، إذ لا شيء من الكل نفسه يستطيع إدراك طبيعته ووجوده.

يؤمن الهرمسيون ويُعلّمون أن الكل، "في ذاته"، هو ويجب أن يكون دائمًا غير قابل للإدراك. إنهم يعتبرون جميع نظريات وتخمينات وتكهنات اللاهوتيين والميتافيزيقيين بشأن الطبيعة الباطنة للكل، مجرد جهود طفولية من عقول بشرية لفهم سر اللانهائي. لطالما فشلت هذه الجهود، وستفشل دائمًا، بحكم طبيعة المهمة ذاتها. إن من يسعى وراء هذه الاستفسارات يجوب متاهة الفكر، حتى يفقد كل تفكير سليم، أو فعل، أو سلوك، ويصبح غير مؤهل تمامًا لحياة العمل. إنه كالسنجاب الذي يركض بجنون حول عجلة قفصه الدوارة، يسافر بلا توقف، ولكنه لا يصل إلى أي مكان - في النهاية لا يزال سجينًا، يقف حيث بدأ.

وأكثر غرورًا من يحاولون أن ينسبوا إلى "الكل" شخصيتهم وصفاتهم وخصائصهم وسماتهم، وينسبون إليه العواطف والمشاعر والخصائص الإنسانية، حتى أدنى صفات البشر، كالغيرة، والميل إلى الإطراء والثناء، والرغبة في القرابين والعبادة، وكل ما تبقى من أيام طفولة الجنس البشري. مثل هذه الأفكار لا تليق بالرجال والنساء البالغين، وسرعان ما يتم التخلص منها. (في هذه المرحلة، قد يكون من المناسب لي أن أذكر أننا نُفرّق بين الدين واللاهوت - بين الفلسفة والميتافيزيقا. الدين، بالنسبة لنا، يعني الإدراك الحدسي لوجود الكل، وعلاقتنا به؛ بينما اللاهوت يعني محاولات البشر نسب الشخصية والصفات والخصائص إليه؛ ونظرياتهم المتعلقة بشؤونه وإرادته ورغباته وخططه وتصاميمه، وتوليهم منصب "الوسطاء" بين الكل والناس. الفلسفة، بالنسبة لنا، تعني البحث عن معرفة الأشياء التي يمكن معرفتها والتفكير فيها؛ بينما الميتافيزيقا تعني محاولة نقل البحث إلى ما وراء الحدود وإلى مناطق مجهولة وغير قابلة للإدراك، وبنفس اتجاه اللاهوت. وبالتالي، فإن كلاً من الدين والفلسفة يعني لنا أشياء لها جذور في الواقع، بينما يبدو اللاهوت والميتافيزيقا وكأنهما منفصلان قصباتٌ متجذرة في رمال الجهل المتحركة، لا تُقدّم سوى دعمٍ مُزعزعٍ لعقل الإنسان أو روحه. لا نُصرّ على قبول طلابنا لهذه التعريفات - فنحن نذكرها فقط لإظهار موقفنا. على أي حال، لن تسمعوا إلا القليل عن اللاهوت والميتافيزيقيا في هذه الدروس.

ولكن بينما جوهر المطلق غير قابلٍ للمعرفة، هناك حقائق مُعينة مُرتبطة بوجوده يجد العقل البشري نفسه مُجبرًا على قبولها. ويُشكّل فحص هذه التقارير موضوعًا مناسبًا للبحث، لا سيما أنها تتفق مع تقارير المُستنيرين في العوالم العليا. وإلى هذا البحث ندعوكم الآن.

"إن الحقيقة الأساسية - الحقيقة الجوهرية - تتجاوز التسمية الحقيقية، لكن الحكماء يُسمّونها المطلق." - الكيباليون.

"في جوهرها، المطلق غير قابلٍ للمعرفة." - الكيباليون. لكن، يجب استقبال تقرير العقل بحفاوة، والتعامل معه باحترام. - الكيباليون.

العقل البشري، الذي يجب علينا قبول تقاريره ما دمنا نفكر، يُخبرنا بما يلي بشأن المطلق، وذلك دون محاولة كشف حجاب المجهول:

(1)يجب أن يكون المطلق هو كل ما هو موجود حقًا. لا يمكن أن يوجد شيء خارج المطلق، وإلا لما كان المطلق مطلقًا.

(2) يجب أن يكون المطلق لانهائيًا، إذ لا يوجد شيء آخر يُعرّفه، أو يُقيده، أو يُقيده، أو يُقيده. لا بد أن يكون لانهائيًا في الزمان، أو أبديًا، لا بد أن يكون موجودًا دائمًا ومستمرًا، إذ لا يوجد شيء آخر خلقه، ولا يمكن لشيء أن يتطور من العدم، ولو لم يكن موجودًا ولو للحظة، لما كان موجودًا الآن، لا بد أن يكون موجودًا دائمًا وأبدًا، إذ لا يوجد ما يدمره، ولا يمكن أن "لا يكون" ولو للحظة، لأن الشيء لا يمكن أن يصير لا شيء. لا بد أن يكون لانهائيًا في المكان، لا بد أن يكون في كل مكان، إذ لا يوجد مكان خارج المطلق، لا يمكن أن يكون إلا مستمرًا في المكان، دون انقطاع أو توقف أو انفصال أو انقطاع، إذ لا يوجد ما يكسر أو يفصل أو يقطع استمراريته، ولا يوجد ما "يملأ" به الفراغات. لا بد أن يكون لانهائيًا في القدرة، أو مطلقًا، إذ لا يوجد ما يحد أو يقيد أو يكبح أو يقيد أو يزعج أو يشترط.

فيه - فهو لا يخضع لأي قوة أخرى، لأنه لا توجد قوة أخرى.

(3)يجب أن يكون الكل ثابتًا، أو غير قابل للتغيير في طبيعته الحقيقية، لأنه لا يوجد شيء يغيره - لا شيء يمكن أن يتغير إليه، ولا يمكن أن يتغير منه. لا يمكن إضافته أو طرحه منه؛ ولا زيادته أو نقصانه؛ ولا أن يصبح أعظم أو أصغر بأي شكل من الأشكال. يجب أن يكون دائمًا، ويجب أن يظل دائمًا، كما هو الآن - الكل - لم يكن هناك أبدًا، وليس الآن، ولن يكون أبدًا، أي شيء آخر يمكن أن يتغير إليه.

بما أن الكل لانهائي، مطلق، أبدي وغير قابل للتغيير، فيجب أن يتبع ذلك أن أي شيء محدود، متغير، زائل، ومشروط لا يمكن أن يكون الكل. وبما أنه لا يوجد شيء خارج الكل، في الواقع، فإن أي وجميع هذه الأشياء المحدودة يجب أن تكون بمثابة لا شيء في الواقع. الآن، لا تُصابوا بالضبابية أو الخوف - فنحن لا نحاول أن نُدخلكم في مجال العلوم المسيحية تحت غطاء الفلسفة الهرمسية. هناك توافق بين هذه الحالة المتناقضة ظاهريًا. اصبروا، سنصل إليه في الوقت المناسب.

نرى من حولنا ما يُسمى "المادة"، التي تُشكل الأساس المادي لجميع الأشكال. هل "الكل" مجرد مادة؟ كلا إطلاقًا! لا يُمكن للمادة أن تُجسّد حياةً أو عقلًا، وبما أن الحياة والعقل يتجليان في الكون، فلا يُمكن للكل أن يكون مادة، لأنه لا شيء يرتفع فوق مصدره - لا شيء يتجلى أبدًا في نتيجة ليست في السبب - لا شيء يتطور كنتيجة غير مُشاركة كمقدمة. ثم يُخبرنا العلم

الحديث أنه لا وجود للمادة - وأن ما نُسميه مادة هو مجرد "طاقة أو قوة مُتقطعة"، أي طاقة أو قوة بمعدل اهتزاز منخفض. كما قال كاتبٌ حديث: "لقد انصهرت المادة في غموض". حتى علم المواد تخلّى عن نظرية المادة، ويرتكز الآن على أساس "الطاقة."

24

فهل الكل إذن مجرد طاقة أم قوة؟ ليس طاقة أم قوة كما يستخدم الماديون المصطلحات، لأن طاقتهم وقوتهم شيئان ميكانيكيان عميان، خاليان من الحياة أو العقل. لا يمكن للحياة والعقل أن يتطوروا من طاقة أو قوة عمياء، للسبب الذي ذُكر قبل قليل: "لا شيء يمكن أن يرتفع أعلى من مصدره - لا شيء يتطور إلا إذا كان مشاركًا - لا شيء يتجلى في النتيجة، إلا إذا كان في السبب". وهكذا، لا يمكن للكل أن يكون مجرد طاقة أو قوة، لأنه لو كان كذلك، لما وُجدت أشياء مثل الحياة والعقل، ونحن نعرف أكثر من ذلك، لأننا أحياء ونستخدم العقل للنظر في هذا السؤال بالذات، وكذلك أولئك الذين يدّعون أن الطاقة أو القوة هي كل شيء. ما الذي يعلو إذن فوق المادة أو الطاقة الذي نعرف وجوده في الكون؟ إنها الحياة والعقل! الحياة والعقل بكل درجات تطورهما المتفاوتة! "إذن،" تسأل، "هل تقصد أن تخبرنا أن الكل هو الحياة والعقل؟" نعم! ولا! هو جوابنا. إذا كنت تقصد الحياة والعقل كما نعرفهما نحن البشر المساكين، فسنقول لا! الكل ليس كذلك!

"ولكن أي نوع من الحياة والعقل تقصد؟" تسأل.

الجواب هو "العقل الحي"، وهو أعلى بكثير مما يعرفه البشر بهذه الكلمات، لأن الحياة والعقل أسمى من القوى الميكانيكية أو المادة - عقل حي لا متناهي مقارنةً بـ "الحياة والعقل" المحدودين. نعني ما تعنيه النفوس المستنيرة عندما تنطق بكلمة "روح" باحترام!

"الكل" هو العقل الحي اللانهائي - يسميه المستنير روحًا!

٢٥

الفصل الخامس: الكون الذهني

"الكون ذهني - مُحتَضَن في عقل المطلق." - الكيباليون.

المطلق هو الروح! ولكن ما الروح؟ هذا سؤال لا يمكن الإجابة عليه، لأن تعريفه عمليًا هو تعريف المطلق، الذي لا يمكن تفسيره أو تعريفه. الروح ببساطة اسم يُطلقه البشر على أسمى مفهوم للعقل الحي اللامتناهي - ويعني "الجوهر الحقيقي" - ويعني العقل الحي، الذي يتفوق على الحياة والعقل بقدر ما نعرفهما، كما يتفوق الأخيران على الطاقة الميكانيكية والمادة. الروح تتجاوز فهمنا، ونستخدم المصطلح فقط لنفكر أو نتحدث عن المطلق. لأغراض التفكير والفهم، يحق لنا اعتبار الروح عقلًا حيًا لانهائيًا، مع الاعتراف في الوقت نفسه بأننا لا نستطيع فهمه تمامًا. علينا إما أن نفعل هذا أو أن نتوقف عن التفكير في المادة تمامًا. لننتقل الآن إلى دراسة طبيعة الكون، ككل وفي أجزائه. ما هو الكون؟ لقد رأينا أنه لا يمكن أن يوجد شيء خارج المطلق. فهل الكون هو المطلق إذن؟ كلا، هذا غير ممكن، لأنه يبدو مكونًا من أشياء كثيرة، وهو في تغير مستمر، وهو في نواحٍ أخرى لا يرقى إلى مستوى الأفكار التي نُجبر على قبولها بشأن المطلق، كما ورد في درسنا السابق. فإذا لم يكن الكون هو المطلق، فلا بد أنه لا شيء - وهذا هو الاستنتاج الحتمي للعقل للوهلة الأولى. لكن هذا لن يُجيب على السؤال، لأننا نُدرك وجود الكون. فإذا لم يكن الكون هو المطلق، ولا هو العدم، فماذا يمكن أن يكون؟ دعونا نفحص أجب عن هذا السؤال.

إذا كان الكون موجودًا أصلًا، أو يبدو أنه موجود، فلا بد أنه نشأ بطريقة ما من المطلق - لا بد أن يكون من خلق المطلق. ولكن بما أن شيئًا لا يمكن أن يأتي من العدم، فمما كان بإمكان المطلق أن يخلقه؟ أجاب بعض الفلاسفة على هذا السؤال قائلين إن المطلق خلق الكون من ذاته - أي من كينونة وجوهر المطلق.

لكن هذا لن يكون كافيًا، لأن المطلق لا يمكن طرحه منه ولا تقسيمه، كما رأينا، وإذا كان الأمر كذلك، ألن يكون كل جسيم في الكون مدركًا لكونه المطلق - لا يمكن للكل أن يفقد معرفته بذاته، ولا أن يصبح ذرة، أو قوة عمياء، أو كائنًا حيًا وضيعًا. بعض البشر، إذ أدركوا أن الكل هو الكل بالفعل، وأدركوا أيضًا وجودهم، أي البشر، قفزوا إلى استنتاج أنهم والكل متطابقون، وملأوا الجو بصيحات "أنا الله"، مما أثار ضحك الجموع وحزن الحكماء. إن ادعاء الجسم: "أنا إنسان!" سيكون متواضعًا بالمقارنة.

ولكن، ما هو الكون حقًا إن لم يكن الكل، الذي لم يخلقه الكل بعد بعد أن انفصل إلى أجزاء؟ ماذا يمكن أن يكون - من أي شيء آخر يمكن صنعه؟ هذا هو السؤال الكبير. دعونا ندرسه بعناية.

نجد هنا أن "مبدأ التطابق" (انظر الدرس الأول) يُفيدنا. ويمكن الاستعانة بالمبدأ الهرمسي القديم، "كما في الأعلى كذلك في الأسفل"، في هذه المرحلة. دعونا نسعى لإلقاء نظرة على آليات العمل في المستويات العليا من خلال فحصها بأنفسنا. يجب أن ينطبق مبدأ التطابق على هذا وعلى مسائل أخرى.

لنرَ! على مستوى وجوده، كيف يُبدع الإنسان؟ حسنًا، أولًا، قد يُبدع بصنع شيء من مواد خارجية. لكن هذا لن يُجدي نفعًا، لأنه لا توجد مواد خارج المطلق يُمكنه الخلق بها.

حسنًا، ثانيًا، يُنتج الإنسان أو يُعيد إنتاج نوعه من خلال عملية التكاثر، وهي عملية تكاثر ذاتي تتم بنقل جزء من جوهره إلى نسله. لكن هذا لن يُجدي نفعًا، لأن المطلق لا يُمكنه نقل أو طرح جزء من نفسه، ولا يُمكنه إعادة إنتاج أو مضاعفة نفسه - في المقام الأول سيكون هناك إزالة، وفي الحالة الثانية مضاعفة أو إضافة إلى المطلق، وكلا الفكرتين مُجرد عبث. ألا توجد طريقة ثالثة يُبدع بها الإنسان؟ أجل، إنه يخلق عقليًا! وبذلك لا يستخدم مواد خارجية، ولا يُعيد إنتاج نفسه، ومع ذلك تتخلل روحه الخلق العقلي.

ووفقًا لمبدأ التطابق، يحق لنا اعتبار أن المطلق يخلق الكون عقليًا، بطريقة تُشبه العملية التي يُنشئ بها الإنسان الصور العقلية. وهنا يتطابق تقرير العقل تمامًا مع تقرير المستنيرين، كما يتضح من تعاليمهم وكتاباتهم. هذه هي تعاليم الحكماء. هكذا كانت تعاليم هرمس.

27

لا يمكن للمطلق أن يخلق إلا عقليًا، دون استخدام المواد (ولا يوجد ما يُستخدم)، أو إعادة إنتاج نفسه (وهو أمر مستحيل أيضًا). لا مفر من هذا الاستنتاج للعقل، الذي، كما ذكرنا، يتفق مع أسمى تعاليم المستنيرين. كما أنتَ، أيها الطالب، قد تُنشئ كونًا خاصًا بك في عقلك، فكذلك يُنشئ المطلق أكوانًا في عقله. لكن كونكَ هو خلقٌ عقليٌّ لعقلٍ محدود، بينما كون المطلق هو خلقٌ لانهائي. الكونان متشابهان في النوع، لكنهما مختلفان اختلافًا لا نهائيًا في الدرجة.
سنتفحص عملية الخلق والتجلي عن كثب مع تقدمنا. لكن هذه هي النقطة التي يجب أن تُثبّت في أذهانكم في هذه المرحلة: الكون، وكل ما يحتويه، هو خلقٌ عقليٌّ للكل.

حقًا، الكل عقل!

"يخلق المطلق في عقله اللانهائي أكوانًا لا تُحصى، موجودة منذ دهور - ومع ذلك، بالنسبة للكل، فإن خلق وتطور وتدهور وموت مليون كون هو كلمح البصر." - الكيباليون.

"العقل اللانهائي للكل هو رحم الأكوان." - الكيباليون. يتجلى مبدأ النوع (انظر الدرس الأول والدروس الأخرى التي تليها) على جميع مستويات الحياة، المادية والعقلية والروحية. ولكن،

كما ذكرنا سابقًا، "النوع" لا يعني "الجنس"، فالجنس مجرد تجلٍّ مادي للنوع. "النوع" يعني "الارتباط بالتكاثر أو الخلق". وكلما وُلد أو خُلق أي شيء، على أي مستوى، يجب أن يتجلى مبدأ النوع. وهذا صحيح حتى في خلق الأكوان.

الآن، لا تستنتجوا أننا نُعلّم بوجود إله أو خالق ذكر وأنثى. هذه الفكرة ليست سوى تحريف للتعاليم القديمة في هذا الموضوع. التعليم الصحيح هو أن المطلق، في حد ذاته، فوق الجنس، كما هو فوق كل قانون آخر، بما في ذلك قوانين الزمان والمكان. إنه القانون الذي تنبثق منه القوانين، وهو غير خاضع لها. ولكن عندما يتجلى المطلق على مستوى التكاثر، إذا كان الكون مخلوقًا، فإنه يعمل وفقًا للقانون والمبدأ، لأنه يتحرك في مستوى أدنى من الوجود. وبالتالي، فإنه يُظهر مبدأ النوع، في جوانبه المذكر والمؤنث، على المستوى العقلي، بالطبع.

28

قد تبدو هذه الفكرة مُذهلة لبعضكم ممن يسمعونها لأول مرة، لكنكم جميعًا قبلتموها بسلبية في تصوراتكم اليومية.

أنتم تتحدثون عن أبوة الله، وأمومة الطبيعة - الله، الآب الإلهي، والطبيعة الأم الكونية - وبالتالي أقررتم غريزيًا بمبدأ النوع في الكون. أليس كذلك؟

لكن التعليم الهرمسي لا يعني ثنائية حقيقية - فالكل واحد - فالجانبان مجرد جوانب للتجلي. التعليم هو أن المبدأ المذكر الذي يتجلى في الكل يقف، بطريقة ما، منفصلًا عن الخلق العقلي الفعلي للكون. إنه يُسقط إرادته على المبدأ الأنثوي (الذي يُمكن تسميته "الطبيعة")، وعندها يبدأ هذا الأخير العمل الفعلي لتطور الكون، من "مراكز النشاط" البسيطة إلى الإنسان، ثم إلى ما هو أعلى، كل ذلك وفقًا لقوانين الطبيعة الراسخة والمطبقة بحزم. إذا كنت تفضل الأشكال الفكرية القديمة، فقد تفكر في المبدأ الذكوري على أنه الله، الأب، والمبدأ الأنثوي على أنه الطبيعة، الأم الكونية، التي وُلد كل شيء من رحمها. هذا أكثر من مجرد مجاز شعري - إنه فكرة عن العملية الفعلية لخلق الكون. لكن تذكر دائمًا أن الكل واحد، وأن الكون في عقله اللانهائي يتولد ويُخلق ويوجد. قد يساعدك على تكوين الفكرة الصحيحة إذا طبقت قانون المراسلات على نفسك وعقلك. أنت تعلم أن ذلك الجزء منك الذي تُسميه "أنا"، بمعنى ما، يقف منفصلاً ويشهد على تكوّن الصور الذهنية في عقلك. يُمكن تسمية ذلك الجزء من عقلك الذي يتم فيه التكوّن الذهني بـ"الأنا" تمييزًا عن "الأنا" الذي يقف منفصلاً ويشهد على أفكار وصور "الأنا" ويفحصها. "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل"، تذكّر، ويمكن توظيف ظواهر مستوى واحد لحل ألغاز المستويات العليا أو الدنيا.

فهل من المُستغرب أن تشعر أنت، أيها الطفل، بذلك التبجيل الغريزي للكل، والذي نُسميه "دينًا" - ذلك الاحترام والتبجيل للعقل الأبوي؟ هل من المُستغرب أيضًا أنه عندما تُفكّر في أعمال الطبيعة وعجائبها، يغمرك شعورٌ قويٌّ متجذّرٌ في أعماق كيانك؟ إنه العقل الأمومي الذي تُضمّه إليك، كطفلٍ رضيعٍ على صدره. ٢٩

لا تخطئ في افتراض أن العالم الصغير الذي تراه من حولك - الأرض، التي هي مجرد حبة غبار في الكون - هو الكون نفسه. هناك ملايين وملايين من هذه العوالم، بل أعظم. وهناك ملايين الملايين من هذه الأكوان موجودة في العقل اللانهائي للكل. وحتى في نظامنا الشمسي الصغير، توجد مناطق ومستويات حياة أعلى بكثير منا، وكائنات بالمقارنة بها، نحن البشر الأرضيون، نشبه أشكال الحياة اللزجة التي تسكن قاع المحيط مقارنةً بالإنسان. هناك كائنات ذات قدرات وسمات أعلى مما حلم الإنسان يومًا أن تمتلكها الآلهة. ومع ذلك، كانت هذه الكائنات مثلك، بل أدنى - وستكون مثلهم، بل أعلى، مع مرور الوقت، فهذا هو مصير الإنسان كما رواه المستنيرون. والموت ليس حقيقيًا، حتى بالمعنى النسبي - إنه مجرد ميلاد لحياة جديدة - وستستمر، وتستمر، وتستمر، إلى مستويات أعلى فأعلى من الحياة، لدهور ودهور من الزمن. الكون هو موطنك، وستستكشف أعمق أعماقه قبل نهاية الزمان. أنت تسكن في العقل اللانهائي للكل، وإمكانياتك وفرصك لا حدود لها، في الزمان والمكان. وفي نهاية دورة الدهور الكبرى، عندما يجذب الكل إلى ذاته جميع مخلوقاته - سترحل بسعادة لأنك ستتمكن حينها من معرفة الحقيقة الكاملة للوحدة مع الكل. هذا هو تقرير المستنيرين - أولئك الذين تقدموا جيدًا على طول الطريق.

وفي هذه الأثناء، اطمئن واطمئنان - أنت آمن ومحمي بقوة العقل الأبوي اللانهائية. في عقل الأب والأم، يشعر الأبناء الفانين بالراحة. - الكيباليون.

لا يوجد أحدٌ بلا أب ولا أم في الكون. - الكيباليون.

30

الفصل السادس: المفارقة الإلهية

"إن أنصاف الحكماء، إذ يدركون زيف الكون النسبي، يتخيلون أنهم يستطيعون تحدي قوانينه - هؤلاء حمقى مغرورون ومتغطرسون، وهم يُحطمون على الصخور وتُمزقهم العناصر بسبب حماقتهم. أما الحكماء الحقيقيون، فهم يعرفون طبيعة الكون، ويستخدمون القانون ضد القوانين؛ والأعلى ضد الأدنى؛ وبفن الخيمياء يُحوّلون ما هو غير مرغوب فيه إلى ما هو جدير، وبالتالي ينتصرون. الإتقان لا يكمن في الأحلام والرؤى الشاذة لا يمكننا أن نتخيل أو نعيش خيالات خيالية، بل نستخدم القوى العليا ضد القوى الدنيا، ونهرب من آلام المستويات الدنيا من خلال الاهتزاز على المستويات العليا. التحويل، وليس الإنكار المُفترض، هو سلاح السيد. - الكيباليون.

هذه هي مفارقة الكون، الناتجة عن مبدأ الاستقطاب الذي يتجلى عندما يبدأ الكل في الخلق - أنصتوا إليه لأنه يُشير إلى الفرق بين نصف الحكمة والحكمة. بينما بالنسبة للكل اللانهائي، فإن الكون، وقوانينه، وقواه، وحياته، وظواهره، هي أشياء تُشاهد في حالة التأمل أو الحلم؛ ومع ذلك، بالنسبة لكل ما هو محدود، يجب أن يُعامل الكون على أنه حقيقي، ويجب أن تُبنى الحياة، والفعل، والفكر، على ذلك، وفقًا لذلك، مع فهم دائم للحقيقة العليا. كلٌّ وفقًا لمستواه وقوانينه. إذا تخيّل الكل أن الكون هو حقيقة بالفعل، فويلٌ للكون، لأنه لن يكون هناك مفرّ من الأدنى إلى الأعلى، نحو الإله - عندها سيصبح الكون ثابتًا وسيصبح التقدم مستحيل.

وإذا كان الإنسان، بحكم نصف حكمة، يتصرف ويعيش ويفكر في الكون كمجرد حلم (يشبه أحلامه المحدودة)، فإنه يكون كذلك بالفعل بالنسبة له، ومثل من يمشي في نومه، يتعثر ويدور في حلقة مفرغة، لا يحرز أي تقدم، ويضطر في النهاية إلى الاستيقاظ بسبب سقوطه مجروحًا وينزف بسبب القوانين الطبيعية التي تجاهلها. ركز تفكيرك دائمًا على النجم، ولكن دع عينيك تراقب خطواتك، خشية أن تسقط في الوحل بسبب نظرتك إلى الأعلى.

تذكر المفارقة الإلهية، أنه بينما الكون ليس موجودًا، فهو موجود.

تذكر دائمًا قطبي الحقيقة: المطلق والنسبي.

احذر من أنصاف الحقائق.

31

ما يعرفه الهرمسيون بـ "قانون المفارقة" هو جانب من مبدأ القطبية. تمتلئ كتابات الهرمسيين بإشارات إلى ظهور المفارقة في دراسة مسائل الحياة والوجود. يُحذّر المعلمون طلابهم باستمرار من خطأ إغفال "الجانب الآخر" من أي سؤال. وتُوجّه تحذيراتهم تحديدًا إلى مسائل

المطلق والنسبي، التي تُحيّر جميع طلاب الفلسفة، وتدفع الكثيرين إلى التفكير والتصرف على عكس ما يُعرف عمومًا بـ"الحس السليم". ونُحذّر جميع الطلاب من إدراك المفارقة الإلهية بين المطلق والنسبي، خشية الوقوع في مستنقع الحقيقة المُضلّلة. ولهذا الغرض، كُتب هذا الدرس تحديدًا. اقرأوه بعناية!

أول ما يتبادر إلى ذهن الإنسان المُفكّر بعد إدراكه حقيقة أن الكون خلقٌ عقليٌّ للمطلق، هو أن الكون وكل ما يحتويه مجرد وهم؛ وهمٌ؛ تُعارضه غرائزه. ولكن هذا، كسائر الحقائق العظيمة، يجب أن يُنظر إليه من منظورَي المطلق والنسبي. من وجهة النظر المطلقة، بالطبع، الكون أشبه بوهم، حلم، أوهام، مقارنةً بالمطلق في ذاته. نُدرك هذا حتى في نظرتنا العادية، إذ نتحدث عن العالم كـ"عرض زائل" يأتي ويذهب، يولد ويموت - لأن عنصري العدم والتغير، والتناقص وعدم الجوهر، يجب أن يكونا مرتبطين دائمًا بفكرة الكون المخلوق عند مقارنته بفكرة المطلق، بغض النظر عن معتقداتنا بشأن طبيعة كليهما. يتفق الفلاسفة والميتافيزيقيون والعلماء واللاهوتيون على هذه الفكرة، وتوجد هذه الفكرة في جميع أشكال الفكر الفلسفي والمفاهيم الدينية، وكذلك في نظريات مدارس الميتافيزيقيا واللاهوت. لذا، فإن التعاليم الهرمسية لا تُبشر بعدم جوهر الكون بعبارات أقوى من تلك المألوفة لدينا. لك، مع أن عرضهم للموضوع قد يبدو أكثر إثارة للدهشة.

أي شيء له بداية ونهاية لا بد أن يكون، بمعنى ما، غير حقيقي وغير صحيح، والكون يخضع لهذا المبدأ في جميع المذاهب الفكرية.

من وجهة النظر المطلقة، لا يوجد شيء حقيقي سوى المطلق، مهما كانت المصطلحات التي نستخدمها في التفكير في الموضوع أو مناقشته.

32

سواء كان الكون مخلوقًا من مادة، أو كان خلقًا عقليًا في عقل المطلق، فهو غير جوهري، غير دائم، شيء من الزمان والمكان والتغير. نريدك أن تدرك هذه الحقيقة تمامًا، قبل أن تُصدر حكمًا على المفهوم الهرمسي للطبيعة العقلية للكون. فكّر في أيٍّ من المفاهيم الأخرى، وانظر إن كان هذا صحيحًا بالنسبة لها.

لكن وجهة النظر المطلقة تُظهر جانبًا واحدًا فقط من الصورة - الجانب الآخر هو الجانب النسبي. عُرفت الحقيقة المطلقة بأنها "الأشياء كـ..." "إن عقل الله يعرفها"، بينما الحقيقة النسبية هي "الأشياء كما يفهمها العقل الأسمى للإنسان". وهكذا، بينما يجب أن يكون الكون بالنسبة إلى الكل غير حقيقي ووهمي، مجرد حلم أو نتيجة للتأمل، فإنه بالنسبة للعقول المحدودة التي تتشكل، كجزء من ذلك الكون، وبالنظر إليه من خلال قدراتنا الفانية، نجد أن الكون حقيقيٌّ

بالفعل، ويجب اعتباره كذلك. عند إدراكنا للرؤية المطلقة، يجب ألا نقع في خطأ تجاهل أو إنكار حقائق وظواهر الكون كما تظهر لنا - فنحن لسنا الكل، تذكروا.

على سبيل المثال، نُدرك جميعًا حقيقة أن المادة "موجودة" بالنسبة لحواسنا - وسنكون في مأزق إن لم نفعل. ومع ذلك، حتى عقولنا المحدودة تُدرك القول المأثور العلمي القائل بأنه لا وجود للمادة من وجهة نظر علمية - فما نُسميه مادة يُعتبر مجرد تجمع ذرات، وهذه الذرات نفسها ليست سوى تجمع لوحدات قوة، تُسمى الإلكترونات أو "الأيونات"، تهتز في حركة دائرية مستمرة. نركل حجرًا ونشعر بالصدمة - يبدو الأمر حقيقيًا، مع أننا نعلم أنه مجرد ما ذكرناه آنفًا.

لكن تذكر أن قدمنا، التي تشعر بالصدمة عن طريق أدمغتنا، هي أيضًا مادة، مكونة من إلكترونات، وكذلك أدمغتنا. وفي أحسن الأحوال، لولا عقولنا، لما عرفنا القدم أو الحجر على الإطلاق.

ومن ناحية أخرى، فإن مثال الفنان أو النحات، الذي يسعى إلى تجسيده على الحجر أو على القماش، يبدو حقيقيًا جدًا بالنسبة له. وكذلك الشخصيات في ذهن المؤلف؛ أو الكاتب المسرحي، التي يسعى إلى التعبير عنها ليتعرف عليها الآخرون. وإذا كان هذا صحيحًا في حالة عقولنا المحدودة، فما درجة الواقعية في الصور الذهنية

33

المُخلقة في ذهن اللانهائي؟ يا أصدقائي، هذا الكون العقلي حقيقيٌّ جدًا للبشر، فهو الكون الوحيد الذي يُمكننا معرفته، حتى وإن ارتقينا فيه من مستوى إلى آخر، أعلى فأعلى. ولمعرفته بطريقة أخرى، بل بتجربة فعلية، يجب أن نكون الكلّ نفسه. صحيحٌ أنه كلما ارتفعنا في السلم، واقتربنا من "عقل الآب"، ازدادت الطبيعة الوهمية للأشياء المحدودة وضوحًا، ولكن لا تتلاشى هذه الرؤية إلا عندما يسحبنا الكلّ أخيرًا إلى ذاته.

لذا، لا داعي للخوض في سمة الوهم. بل دعونا، مُدركين الطبيعة الحقيقية للكون، نسعى لفهم قوانينه العقلية، ونسعى لاستخدامها على أفضل وجه في ارتقائنا في الحياة، ونحن ننتقل من مستوى إلى مستوى من الوجود. قوانين الكون هي مع ذلك "قوانين حديدية" نظرًا لطبيعتها العقلية. الكل، ما عدا الكلّ، مُقيّد بها. ما في العقل اللانهائي للكل حقيقيٌّ بدرجةٍ لا تضاهيها إلا تلك الحقيقة نفسها المُترسخة في طبيعة الكل.

لذا، لا تشعروا بعدم الأمان أو الخوف - فنحن جميعًا مُقيدون بقوة في العقل اللانهائي للكل، وليس هناك ما يؤذينا أو يُخيفنا. لا توجد قوةٌ خارج الكل تؤثر علينا. لذا، فلننعم بالسكينة والأمان.

هناك عالمٌ من الراحة والأمان في هذا الإدراك بمجرد بلوغه. حينها "ننام في هدوءٍ وسكينة، مُهتزّين في مهد الأعماق" - مُستريحين بأمان على صدر محيط العقل اللانهائي، الذي هو الكل. في الكل، حقًا، "نعيش ونتحرك ونوجد."

المادة، مع ذلك، تبقى مادةً بالنسبة لنا، ونحن نسكن على مستوى المادة، مع أننا نعلم أنها مجرد تجمع "إلكترونات"، أو جسيمات قوة، تهتز بسرعة وتدور حول بعضها البعض في تكوين الذرات؛ الذرات بدورها تهتز وتدور، مكونةً جزيئات، تُشكل بدورها كتلًا أكبر من المادة. ولا تصبح المادة أقل مادةً عندما نتعمق في البحث، ونتعلم من التعاليم الهرمسية أن "القوة" التي تُمثل الإلكترونات وحداتها هي مجرد تجلٍّ لعقل المطلق، ومثل كل شيء آخر في الكون، هي عقلية بحتة بطبيعتها. بينما نحن على مستوى المادة، يجب أن ندرك ظواهرها - قد نتحكم في المادة (كما يفعل جميع سادة الدرجة العليا أو الدنيا)، لكننا نفعل ذلك بتطبيق القوى العليا. نرتكب حماقةً عندما نحاول إنكار وجود المادة في جانبها النسبي. قد ننكر سيطرتها علينا - وهذا صحيح - لكن لا ينبغي لنا أن نحاول تجاهلها في جانبها النسبي، على الأقل ما دمنا نتأمل في مستواها. ولا تصبح قوانين الطبيعة أقل ثباتًا أو فعالية، عندما نعلم أنها، بالمثل، مجرد إبداعات عقلية. إنها سارية المفعول بالكامل على مختلف المستويات. نتغلب على القوانين الدنيا، بتطبيق قوانين أعلى - وبهذه الطريقة فقط. لكن لا يمكننا الهروب من القانون أو الارتفاع فوقه تمامًا. لا شيء سوى المطلق يمكنه الهروب من القانون - وذلك لأن المطلق هو القانون نفسه، الذي تنبثق منه جميع القوانين. قد يكتسب أكثر السادة تقدمًا القوى التي تُنسب عادةً إلى آلهة البشر؛ وهناك مراتب لا حصر لها من الكائنات، في التسلسل الهرمي العظيم للحياة، التي يتجاوز وجودها وقوتها حتى أعلى السادة بين البشر إلى درجة لا يمكن للبشر تصورها، ولكن حتى أعلى سيد، وأعلى كائن، يجب أن ينحني للقانون، ويكون لا شيء في نظر الله.

الكل. فإذا كانت هذه الكائنات العليا، التي تتجاوز قدراتها تلك التي ينسبها البشر إلى آلهتهم - حتى لو كانت هذه الكائنات مُقيدة بالقانون وخاضعة له، فتخيلوا غرور الإنسان الفاني، من جنسنا وطبقتنا، عندما يجرؤ على اعتبار قوانين الطبيعة "غير واقعية!" خيالية ووهمية، لأنه قادر على إدراك حقيقة أن هذه القوانين عقلية بطبيعتها، وأنها ببساطة من إبداعات الكل العقلية. لا يمكن تحدي تلك القوانين التي ينوي الكل أن تكون قوانين حاكمة أو التهرب منها. ما دام الكون قائمًا، فسوف يستمر - لأن الكون موجود بفضل هذه القوانين التي تُشكل إطاره وتُبقيه متماسكًا.

إن المبدأ الهرمسي للعقلانية، بينما يُفسر الطبيعة الحقيقية للكون على مبدأ أن كل شيء عقلي، لا يُغير المفاهيم العلمية للكون أو الحياة أو التطور. في الواقع، يُؤكد العلم التعاليم الهرمسية فحسب. تُعلّم الأخيرة أن طبيعة الكون "عقلية"، بينما علّمها العلم الحديث أنها "مادية"؛ أو

(مؤخرًا) أنها "طاقة" في نهاية المطاف. لا تُخالف التعاليم الهرمسية مبدأ هربرت سبنسر الأساسي الذي يُفترض وجود "طاقة أبدية لا نهائية، ينبع منها كل شيء". في الواقع، يُقرّ الهرمسيون في فلسفة سبنسر بأسمى بيان خارجي لآليات القوانين الطبيعية التي نُشرت على الإطلاق، ويعتقدون أن سبنسر كان تجسيدًا لفيلسوف قديم عاش في مصر القديمة منذ آلاف السنين، والذي تجسد لاحقًا في صورة هيراقليطس، الفيلسوف اليوناني الذي عاش عام 500 قبل الميلاد. ويعتبرون قولَه عن "الطاقة اللانهائية والأبدية" متوافقًا تمامًا مع التعاليم الهرمسية، مع إضافة عقيدتهم الخاصة بأن "طاقته" هي طاقة عقل المطلق. وباستخدام المفتاح الرئيسي للفلسفة الهرمسية، سيتمكن طالب سبنسر من فتح العديد من أبواب المفاهيم الفلسفية الباطنية للفيلسوف الإنجليزي العظيم، الذي تُظهر أعماله نتائج تحضير تجسيداته السابقة. تتفق تعاليمه المتعلقة بالتطور والإيقاع تمامًا تقريبًا مع التعاليم الهرمسية المتعلقة بمبدأ الإيقاع. لذا، لا يحتاج طالب الهرمسية إلى التخلي عن أيٍّ من آرائه العلمية العزيزة بشأن الكون. كل ما يُطلب منه هو استيعاب المبدأ الأساسي القائل بأن "الكل عقل؛ والكون عقلي - مُحتَفَظ به في عقل الكل". سيجد أن المبادئ الستة الأخرى من المبادئ السبعة ستُناسب معرفته العلمية، وستُساعد في إبراز النقاط الغامضة وإلقاء الضوء على الزوايا المظلمة. لا عجب في ذلك، عندما نُدرك تأثير الفكر الهرمسي لفلاسفة اليونان الأوائل، الذين استندت نظريات العلم الحديث إلى حد كبير على أسسهم الفكرية. إن قبول المبدأ الهرمسي الأول (العقلانية) هو نقطة الاختلاف الكبرى الوحيدة بين العلم الحديث وطلاب الهرمسية، والعلم يتجه تدريجيًا نحو الموقف الهرمسي في سعيه الحثيث للخروج من المتاهة التي ضل طريقه فيها بحثًا عن الحقيقة.

الغرض من هذا الدرس هو غرس فكرة أن الكون وقوانينه وظواهره، في الواقع، حقيقية تمامًا، بالنسبة للإنسان، كما هي في ظل فرضيات المادية أو الطاقة.

بموجب أي فرضية، يكون الكون في مظهره الخارجي متغيرًا، ودائم التدفق، وعابرًا - وبالتالي خاليًا من الجوهر والواقع.

ولكن (لاحظ القطب الآخر للحقيقة) في ظل نفس الفرضيات، نُجبر على التصرف والعيش كما لو كانت الأشياء الزائلة حقيقية وجوهرية. مع هذا الاختلاف، دائمًا، بين الفرضيات المختلفة - أنه في ظل الآراء القديمة، كانت القوة العقلية تُتجاهل كقوة طبيعية، بينما في ظل العقلية تُصبح أعظم قوة طبيعية. وهذا الاختلاف يُحدث ثورة في الحياة، لمن يفهم المبدأ وقوانينه وممارساته الناتجة.

أخيرًا، أيها الطلاب، اغتنموا ميزة العقلية، وتعلموا معرفة القوانين الناتجة عنها واستخدامها وتطبيقها. لكن لا تستسلموا للإغراء الذي، كما يقول الكيباليون، يُغلب على أنصاف الحكماء،

ويجعلهم يُنومون مغناطيسيًا بزيف الأشياء الظاهري، والنتيجة هي أنهم يتجولون كأحلامٍ تسكن عالمًا من الأحلام، متجاهلين العمل العملي للإنسان وحياته، والنتيجة هي أنهم "يُحطمون على الصخور ويُمزقون إربًا بفعل العوامل، بسبب جنونهم". بل اتبعوا مثال الحكماء، الذين تنصّ عليهم المرجعية نفسها: "استخدموا القانون ضدّ القوانين، والأعلى ضدّ الأدنى، وبفنّ الكيمياء حوّلوا ما هو غير مرغوب فيه إلى ما هو جدير، وهكذا تنتصرون". باتباع المرجعية، دعونا نتجنب نصف الحكمة (وهو حماقة) التي تتجاهل حقيقة أن: "الإتقان لا يكمن في الأحلام والرؤى والتخيلات أو العيش الخيالي، بل في استخدام القوى العليا ضد القوى الدنيا - الهروب من آلام المستويات الدنيا بالاهتزاز في المستويات العليا." تذكر دائمًا أيها الطالب أن "التحول، وليس الإنكار المغرور، هو سلاح المعلم".

هذه الاقتباسات من كتاب "الكيباليون"، وهي جديرة بأن يحفظها الطالب.

نحن لا نعيش في عالم من الأحلام، بل في كون نسبي، ولكنه حقيقي فيما يتعلق بحياتنا وأفعالنا. مهمتنا في الكون ليست إنكار وجوده، بل العيش، مستخدمين القوانين للارتقاء من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى - نواصل العيش، ونبذل قصارى جهدنا في ظل الظروف التي تنشأ كل يوم، ونعيش، قدر الإمكان، وفقًا لأعظم أفكارنا ومُثُلنا. المعنى الحقيقي للحياة غير معروف للبشر على هذا المستوى، إن كان أحدٌ يعلمنا - سوى السلطات العليا وحدسنا - أننا لن نخطئ في العيش وفق أفضل ما فينا، قدر الإمكان، وإدراك النزعة الكونية في نفس الاتجاه، رغم وجود أدلة ظاهرة تُشير إلى عكس ذلك. نحن جميعًا على الطريق - والطريق يؤدي إلى الأعلى دائمًا، مع أماكن راحة متكررة.

37

اقرأ رسالة الكيباليون - واتبع مثال "الحكماء" - متجنبًا خطأ "نصف الحكماء" الذين يهلكون بسبب حمقهم.

38

الفصل 7. "الكل" في الكل

"ما دام الكل في الكل، فمن الصحيح أيضًا أن الكل في الكل. من يفهم هذه الحقيقة حقًا قد نال معرفةً عظيمة." - الكيباليون. كم مرة سمع غالبية الناس عبارة "الكل في الكل" تُكرر، وكم قلّما شكّوا في الحقيقة الباطنية الخفية التي تُخفيها هذه الكلمات المُتلعثمة؟ هذا التعبير الشائع هو امتدادٌ للمبدأ الهرمسي القديم المذكور آنفًا. وكما يقول الكيباليون: "من فهم هذه الحقيقة حقًّا، فقد وُفّق في معرفةٍ عظيمة". وإذًا، فلنبحث عن هذه الحقيقة، التي يعني فهمها الكثير. في هذا المبدأ الهرمسي، تُخفي إحدى أعظم الحقائق الفلسفية والعلمية والدينية. لقد قدّمنا لكم التعاليم الهرمسية المتعلقة بالطبيعة العقلية للكون، حقيقة أن "الكون عقلي - مُحتوى في عقل الكل". وكما يقول الكيباليون، في المقطع المذكور آنفًا: "الكل في الكل". لكن لاحظ أيضًا العبارة ذات الصلة، وهي: "صحيحٌ أيضًا أن الكل في الكل". هذه العبارة المتناقضة ظاهريًا قابلة للتوفيق بموجب قانون المفارقة. علاوةً على ذلك، فهي عبارة هرمسية دقيقة عن العلاقات القائمة بين الكل وكونه الذهني. لقد رأينا كيف أن "الكل في الكل" - والآن دعونا نفحص الجانب الآخر من الموضوع.

تنص التعاليم الهرمسية على أن الكل وشيك الوجود في ("موجود في الداخل؛ متأصل؛ ساكن في الداخل") كونه، وفي كل جزء، أو جسيم، أو وحدة، أو مجموعة، داخل الكون. عادةً ما يوضح المعلمون هذه العبارة بالإشارة إلى مبدأ التطابق. يوجه المعلم الطالب إلى تكوين صورة ذهنية لشيء ما، لشخص، لفكرة، لشيء له شكل ذهني، والمثال المفضل هو المؤلف أو كاتب المسرحيات الذي يشكل فكرة عن شخصياته؛ أو رسام أو نحات يُصوّر صورةً لمُثُلٍ أعلى يرغب في التعبير عنها بفنّه. في كلتا الحالتين، سيجد الطالب أنه بينما للصورة وجودها ووجودها في ذهنه وحده، إلا أنه، الطالب أو المؤلف أو الكاتب المسرحي أو الرسام أو النحات، مُتأصلٌ في الصورة الذهنية، أو مُقيمٌ فيها. بعبارة أخرى، 39

تُستمدّ كامل فضيلة الواقع وحياته وروحه في الصورة الذهنية من "العقل المُتأصل" للمُفكّر. تأمل هذا للحظة، حتى تُدرك الفكرة.

لنأخذ مثالاً مُعاصراً، لنفترض أن عطيل، ياغو، هاملت، لير، ريتشارد الثالث، كانوا موجودين فقط في ذهن شكسبير، وقت تصورهم أو إبداعهم. ومع ذلك، كان شكسبير موجوداً أيضاً في كلٍّ من هذه الشخصيات، مانحاً إياها حيويتها وروحها ونشاطها. من هي "روح" الشخصيات التي نعرفها باسم ميكاوبر، وأوليفر تويست، وأوريا هيب؟ هل هي ديكنز، أم أن لكلٍّ من هذه الشخصيات روحًا خاصة، مستقلة عن خالقها؟ هل فينوس ميديشي، وسيستين مادونا، وأبولو بيلفيدير، أرواح وواقع خاص بها، أم أنها تُمثل القوة الروحية والعقلية لخالقها؟ يُفسر قانون المفارقة صحة كلا الافتراضين، إذا نظرنا إليهما من منظورين صحيحين. ميكاوبر هو

ميكاوبر، ومع ذلك ديكنز. ومرة أخرى، بينما يُمكن القول إن ميكاوبر هو ديكنز، إلا أن ديكنز ليس هو ميكاوبر. قد يُهتف الإنسان، مثل ميكاوبر، قائلًا: "روح خالقي متأصلة فيّ، ومع ذلك فأنا لست هو!" كم يختلف هذا عن نصف الحقيقة الصادمة التي أعلنها بصوت عالٍ بعض من هم نصف حكماء، الذين يملؤون الهواء بأفكارهم المغلوطة.

صرخاتٌ صاخبة: "أنا الله!" تخيّل ميكاوبر المسكين، أو يوريا هيب الماكر، يصرخ: "أنا ديكنز"؛ أو أحد الحمقى في إحدى مسرحيات شكسبير، يُعلن ببلاغة: "أنا شكسبير!". الكل موجود في دودة الأرض، ومع ذلك، فإن دودة الأرض بعيدة كل البعد عن أن تكون الكل. ومع ذلك، يبقى العجب، فرغم أن دودة الأرض موجودةٌ فقط كشيءٍ وضيع، مخلوقةٍ ولها وجودها الخاص في عقل الكل، إلا أن الكل متأصلٌ في دودة الأرض، وفي الجسيمات التي تُكوّنها. هل يُمكن أن يكون هناك لغزٌ أعظم من "الكل في الكل؛ والكل في الكل"؟ سيدرك الطالب، بالطبع، أن الأمثلة المذكورة أعلاه ناقصة وغير كافية بالضرورة، لأنها تُمثل خلق صور ذهنية في عقول محدودة، بينما الكون من صنع عقل لانهائي، والفرق بين القطبين يفصل بينهما. ومع ذلك، فالأمر لا يعدو أن يكون مسألة درجة، فالمبدأ نفسه ساري المفعول، ويتجلى مبدأ التطابق في كل منهما: "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل، وكما في الأسفل، كذلك في الأعلى."

40

وبقدر ما يُدرك الإنسان وجود الروح الساكنة في كيانه، يرتقي في السلم الروحي للحياة. هذا ما يعنيه التطور الروحي، أي إدراك الروح وإدراكها وتجليها فينا. حاول أن تتذكر هذا التعريف الأخير، أي التطور الروحي. إنه يحتوي على حقيقة الدين الحق.

هناك مستويات عديدة للوجود، ومستويات فرعية عديدة للحياة، ودرجات عديدة من الوجود في الكون. وكل شيء يعتمد على تقدم الكائنات في هذا المقياس، حيث أدنى نقطة فيه هي المادة الخام، وأعلاها لا يفصلها عن روح المطلق إلا أدنى فاصل. وعلى طول هذا المقياس للحياة، كل شيء يتحرك.

الجميع على الطريق الذي ينتهي بالكل. كل تقدم هو عودة إلى الوطن.

الجميع في صعود وهبوط، على الرغم من كل المظاهر المتناقضة ظاهريًا. هذه هي رسالة المستنير.

تنص التعاليم الهرمسية المتعلقة بعملية الخلق العقلي للكون على أنه في بداية دورة الإبداع، يُسقط المطلق، في جانبه من الوجود، إرادته نحو جانبه من "الصيرورة"، فتبدأ عملية الخلق. ويُعلم أن العملية تتكون من خفض الاهتزاز حتى الوصول إلى درجة منخفضة جدًا من الطاقة الاهتزازية، وعندها يتجلى أغلظ شكل ممكن للمادة. تُسمى هذه العملية مرحلة الالتواء، حيث

يصبح المطلق "منخرطًا" أو "مُحاطًا" بخلقه. يعتقد الهرمسيون أن هذه العملية تُشابه العملية العقلية للفنان أو الكاتب أو المخترع، الذي ينغمس في خلقه العقلي لدرجة أنه يكاد ينسى وجوده، ويكاد، مؤقتًا، "يعيش في خلقه". لو استخدمنا كلمة "مُحاطًا" بدلًا من "مُحاطًا"، لربما أوضحنا المقصود.

تُسمى هذه المرحلة اللاإرادية من الخلق أحيانًا "فيض" الطاقة الإلهية، تمامًا كما تُسمى الحالة التطورية "الانسحاب."

يُعتبر القطب الأقصى لعملية الإبداع أبعد ما يكون عن المطلق، بينما تُعتبر بداية المرحلة التطورية بداية عودة بندول الإيقاع - وهي فكرة "العودة إلى الوطن" مُضمنة في جميع التعاليم الهرمسية.

41

تنص التعاليم على أنه خلال "التدفق"، تنخفض الاهتزازات تدريجيًا حتى يزول الدافع أخيرًا، ويبدأ عودة التأرجح.

لكن ثمة فرقًا، وهو أنه بينما تتجلى القوى الخلاقة في "التدفق" بشكلٍ مُركّزٍ وكامل، إلا أنه منذ بداية مرحلة التطور أو "الانسحاب"، يتجلى قانون التفرّد - أي الميل إلى الانفصال إلى وحدات من القوة، بحيث تعود في النهاية تلك التي غادرت المطلق كطاقة غير مُفرّدة إلى مصدرها كوحدات حياة متطورة لا تُحصى، بعد أن ارتفعت أعلى فأعلى في المستوى عن طريق التطور الجسدي والعقلي والروحي.

يستخدم الهرمسيون القدماء كلمة "التأمل" لوصف عملية الخلق العقلي للكون في عقل المطلق، كما تُستخدم كلمة "التأمل" بكثرة. ولكن يبدو أن الفكرة المقصودة هي استخدام الاهتمام الإلهي. "الانتباه" كلمة مشتقة من الجذر اللاتيني، وتعني "الامتداد"، وبالتالي فإن فعل الانتباه هو في الواقع "امتداد" ذهني للطاقة العقلية، بحيث تُفهم الفكرة الأساسية بسهولة عند التعمق في المعنى الحقيقي لـ "الانتباه."

تنص التعاليم الهرمسية المتعلقة بعملية التطور على أن الكل، بعد أن تأمل في بداية الخلق - وبالتالي وضع الأسس المادية للكون - وبعد أن فكر في وجوده - يستيقظ تدريجيًا أو يستيقظ من تأمله، وبذلك يبدأ عملية التطور، على المادة.

المستويات الجوهرية والروحية، على التوالي وبالترتيب. وهكذا تبدأ الحركة التصاعدية، ويبدأ كل شيء بالتحرك نحو الروح. تصبح المادة أقل خشونة؛ وتنبثق الوحدات إلى الوجود؛ وتبدأ التركيبات بالتشكل؛ وتظهر الحياة وتتجلى في أشكال أسمى فأسمى؛ ويزداد العقل وضوحًا - وتزداد الاهتزازات ارتفاعًا باستمرار. باختصار، تبدأ عملية التطور برمتها، في جميع

مراحلها، وتستمر وفقًا لـ "قوانين عملية السحب" الراسخة. كل هذا يستغرق دهورًا تلو دهور من زمن الإنسان، كل دهر يحتوي على ملايين لا تُحصى من السنين، ومع ذلك يُخبرنا المستنيرون أن الخلق بأكمله، بما في ذلك الالتواء والتطور، للكون، ليس سوى "غمضة عين" بالنسبة للمطلق. في نهاية دورات لا تُحصى من الدهور، يسحب المطلق انتباهه - تأمله وتفكّره - عن الكون، إذ يُنجز العمل العظيم - وينسحب الكل إلى المطلق الذي انبثق منه. لكن سرّ الأسرار - روح كل نفس لا تُفنى، بل تتوسع بلا حدود - فيندمج المخلوق والخالق. هذا هو تقرير المستنير!

إنّ المثال السابق على "تأمل" المطلق، وما يليه من "صحوة" منه، ليس بالطبع سوى محاولة من المعلمين لوصف العملية اللانهائية بمثال محدود. ومع ذلك: "كما في الأسفل، كذلك في الأعلى". الفرق في الدرجة فقط. وكما يستيقظ المطلق من تأمله في الكون، كذلك يكف الإنسان (مع مرور الوقت) عن التجلي في المستوى المادي، وينسحب أكثر فأكثر إلى الروح الساكنة، التي هي في الواقع "الأنا الإلهية."

هناك مسألة أخرى نرغب في التطرق إليها في هذا الدرس، وهي تكاد تكون غزوًا لمجال التأمل الميتافيزيقي، مع أن هدفنا هو مجرد إظهار عبثية هذا التأمل. نشير إلى السؤال الذي يتبادر حتمًا إلى أذهان جميع المفكرين الذين غامروا بالبحث عن الحقيقة. وهو: "لماذا يخلق المطلق الأكوان؟". قد يُطرح السؤال بأشكال مختلفة، لكن ما سبق هو جوهر البحث.

لقد سعى البشر جاهدين للإجابة على هذا السؤال، ولكن لا توجد إجابة جديرة بهذا الاسم. تخيل البعض أن المطلق لديه ما يكسبه منه، لكن هذا سخيف، فما الذي يمكن أن يكسبه المطلق مما لم يكن يمتلكه بالفعل؟ سعى آخرون إلى إيجاد الإجابة في فكرة أن المطلق "أراد أن يُحب شيئًا ما"، وأن الآخرين خلقوه للمتعة أو التسلية؛ أو لأنه "كان وحيدًا" أو لإظهار قوته؛ - كلها تفسيرات وأفكار طفولية، تنتمي إلى مرحلة التفكير الطفولي.

سعى آخرون إلى تفسير اللغز بافتراض أن المطلق وجد نفسه "مُجبرًا" على الإبداع، بسبب "طبيعته الداخلية" - "غريزته الإبداعية". هذه الفكرة متقدمة على غيرها، لكن نقطة ضعفها تكمن في فكرة أن المطلق "مُجبر" على أي شيء، داخليًا كان أم خارجيًا. إذا كانت "طبيعته الداخلية" أو "غريزته الإبداعية" تُجبره على فعل أي شيء، فإن "الطبيعة الداخلية" أو "الغريزة الإبداعية" ستكون المطلق، بدلًا من المطلق، وبالتالي يسقط هذا الجزء من القضية. ومع ذلك، فإن المطلق يخلق ويُظهر، ويبدو أنه يجد في ذلك نوعًا من الرضا. ومن الصعب الفرار من الاستنتاج القائل بأنه، إلى حدٍّ لا نهائي، لا بد أن يكون لديه ما يُقابل "طبيعةً باطنية" أو "غريزة إبداعية" في الإنسان، مع رغبة وإرادة لا نهائيتين مُقابل ذلك. لا يمكنه أن يفعل ما لم يُرِد الفعل؛ ولن يُرِد الفعل ما لم يُرِد الفعل، ولن يرغب في الفعل ما لم يحصل على رضا

ما. وكل هذه الأشياء تنتمي إلى "طبيعة باطنية"، ويمكن افتراض وجودها وفقًا لقانون التطابق. ومع ذلك، نُفضّل أن نفكر في المطلق على أنه يفعل متحررًا تمامًا من أي تأثير، داخليًا كان أم خارجيًا. هذه هي المشكلة التي تكمن في جذر الصعوبة - والصعوبة التي تكمن في جذر المشكلة. بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يمكن القول بوجود أي "سبب" لفعل المطلق، لأن "السبب" يستلزم "سببًا"، والمطلق فوق العلة والمعلول، إلا عندما يُريد أن يصبح علة، وعندها يبدأ المبدأ في الحركة. لذا، كما ترى، فإن الأمر لا يُعقل، كما أن المطلق غير قابل للمعرفة. وكما نقول عن المطلق إنه "موجود" فحسب، فإننا مُضطرون إلى القول إن "المطلق يفعل لأنه يفعل". في النهاية، المطلق هو كل عقل في ذاته، كل قانون في ذاته، كل فعل في ذاته، ويمكن القول، بصدق، إن المطلق هو عقله الخاص، قانونه الخاص، فعله الخاص، أو بالأحرى، إن المطلق، عقله الخاص، فعله هو قانون، كلها أسماء لنفس الشيء. في رأي من يقدمون لكم هذه الدروس، يكمن الجواب في الذات الباطنة للكل، وفي سر وجوده. قانون التوافق، في رأينا، لا يصل إلا إلى ذلك الجانب من الكل، الذي قد يكون يُطلق عليه "مظهر الصيرورة". وخلف هذا المظهر "مظهر الوجود" الذي تضيع فيه جميع القوانين في القانون؛ وتندمج جميع المبادئ في المبدأ - ويكون الكل والمبدأ والوجود متطابقين، واحدًا واحدًا. لذلك، فإن التكهنات الميتافيزيقية في هذه النقطة عقيمة. نتناول هذه المسألة هنا فقط لنُظهر أننا نُدرك السؤال، وكذلك عبثية الإجابات العادية للميتافيزيقا واللاهوت. في الختام، قد يكون من المفيد لطلابنا أن يعلموا أنه بينما مال بعض معلمي الهرمسية القدماء والمعاصرين إلى تطبيق مبدأ التطابق على السؤال، مما أدى إلى استنتاج "الطبيعة الداخلية"، إلا أن الأساطير تقول إن هيرمس العظيم، عندما سأله طلابه المتقدمون هذا السؤال، أجابهم بضم شفتيه بقوة وصمت، مشيرًا إلى عدم وجود إجابة. ولكن، ربما كان ينوي حينها تطبيق مبدأ فلسفته القائل بأن: "شفاه الحكمة مغلقة، إلا عن آذان الفهم"، معتقدًا أن حتى طلابه المتقدمين لم يمتلكوا الفهم الذي يخولهم تلقي التعليم. على أي حال، إذا كان هيرمس يمتلك السر، فقد فشل في نقله، وبالنسبة للعالم، فإن شفتي هيرمس مغلقتان بشأنه. وحيث تردد هرمس العظيم في الكلام، فأيُّ بشرٍ يجرؤ على تعليمه؟

ولكن، تذكروا، مهما كان الجواب على هذه المسألة، إن وُجد، تبقى الحقيقة: "ما دام الكل في الكل، فمن الصحيح أيضًا أن الكل في الكل". التعليم في هذه النقطة حاسم.

ولنضيف الكلمات الختامية للاقتباس: "من فهم هذه الحقيقة فهمًا صحيحًا، فقد نال معرفةً عظيمة".

الفصل الثامن: مستويات التطابق

"كما في الأعلى، كذلك في الأسفل؛ وكما في الأسفل، كذلك في الأعلى." - الكيباليون.

يجسّد المبدأ الهرمسي الثاني العظيم حقيقة وجود انسجام وتوافق وتطابق بين مستويات التجلي والحياة والوجود المختلفة. هذه الحقيقة حقيقة لأن كل ما هو موجود في الكون ينبع من المصدر نفسه، وتنطبق القوانين والمبادئ والخصائص نفسها على كل وحدة، أو مجموعة وحدات، من النشاط، حيث تُجسّد كل منها ظواهرها الخاصة على مستواها الخاص.

ولتسهيل التفكير والدراسة، ترى الفلسفة الهرمسية أن الكون يمكن تقسيمه إلى ثلاث فئات رئيسية من الظواهر، تُعرف باسم المستويات الثلاثة الكبرى، وهي:

1. المستوى الفيزيائي الكبير.

2. المستوى العقلي الكبير.

3. المستوى الروحي الكبير.

هذه التقسيمات، إلى حد ما، مصطنعة وتعسفية، فالحقيقة أن جميع التقسيمات الثلاثة ما هي إلا درجات تصاعدية في مقياس الحياة العظيم، أدنى نقطة فيه هي المادة غير المتمايزة، وأعلى نقطة هي الروح. علاوة على ذلك، تتداخل المستويات المختلفة في بعضها البعض، بحيث لا يمكن إجراء تقسيم صارم وسريع بين الظواهر العليا للجسد والدنيا للعقل؛ أو بين أعلى العقل وأدنى الجسد.

باختصار، يمكن اعتبار المستويات الثلاثة الكبرى ثلاث مجموعات كبيرة من درجات تجلي الحياة. وبينما لا تسمح لنا أهداف هذا الكتاب الصغير بالدخول في مناقشة مطولة أو شرح لموضوع هذه المستويات المختلفة، إلا أننا نرى أنه من الجيد تقديم وصف عام لها في هذه المرحلة. في البداية، قد يكون من الأفضل أن نفكر في السؤال الذي يُطرحه المبتدئون كثيرًا، الراغبين في معرفة معنى كلمة "مستوًى"، وهو مصطلح استُخدم بكثرة، وفسّر بشكل سيء للغاية، في العديد من الأعمال الحديثة حول موضوع علوم الباطن. يتمحور السؤال بشكل عام حول: "هل المستوى مكان ذو أبعاد، أم أنه مجرد حالة أو حالة؟" نجيب: "لا، ليس مكانًا، ولا بُعدًا عاديًا للفضاء؛ ومع ذلك فهو أكثر من مجرد حالة أو حالة. يمكن اعتباره حالة أو حالة، ومع ذلك فإن هذه الحالة أو الحالة هي درجة من البعد، في مقياس قابل للقياس." أليس هذا متناقضًا بعض الشيء؟ لكن دعونا نفحص الأمر. "البعد"، كما تعلمون، هو "قياس في خط مستقيم، يتعلق بالقياس"، إلخ. الأبعاد العادية للفضاء هي الطول والعرض والارتفاع، أو ربما الطول والعرض والارتفاع والسمك أو المحيط. لكن هناك بُعدًا آخر لـ"الأشياء المخلوقة" أو

"القياس على خط مستقيم"، معروف لعلماء الباطنية، وللعلماء أيضًا، مع أن هؤلاء لم يُطلقوا عليه بعد مصطلح "البعد" - وهذا البُعد الجديد، الذي يُمثل بالمناسبة "البعد الرابع" الذي كثرت التكهنات حوله، هو المعيار المُستخدم لتحديد الدرجات أو "المستويات."

يمكن تسمية هذا البُعد الرابع "بُعد الاهتزاز". إنها حقيقة معروفة جيدًا للعلم الحديث، وكذلك للهرمسيين الذين جسدوا الحقيقة في "مبدأهم الهرمسي الثالث"، وهي أن "كل شيء في حركة؛ كل شيء يهتز؛ لا شيء ساكن". من أعلى تجلي إلى أدنى تجلي، كل شيء وكل الأشياء تهتز. إنها لا تهتز بمعدلات حركة مختلفة فحسب، بل تهتز أيضًا في اتجاهات مختلفة وبطريقة مختلفة. تُشكل درجات معدل الاهتزازات درجات القياس على مقياس الاهتزازات - أي درجات البعد الرابع. وتُشكل هذه الدرجات ما يُطلق عليه علماء الباطنية "المستويات". فكلما ارتفعت درجة معدل الاهتزاز، ارتفع المستوى، وارتفع تجلي الحياة التي تشغله. لذا، فبينما لا يُعتبر المستوى "مكانًا"، ولا "حالة أو ظرفًا"، إلا أنه يمتلك صفات مشتركة بينهما. سنتحدث أكثر عن موضوع مقياس الاهتزازات في دروسنا القادمة، التي سنتناول فيها المبدأ الهرمسي للاهتزاز.

مع ذلك، يُرجى تذكر أن المستويات الثلاثة الكبرى ليست تقسيمات فعلية لظواهر الكون، بل هي مجرد مصطلحات اعتباطية يستخدمها علماء الباطنية للمساعدة في التفكير في مختلف درجات وأشكال النشاط الكوني والحياة ودراستها. ذرة المادة، ووحدة القوة، وعقل الإنسان، ووجود رئيس الملائكة، كلها درجات في مقياس واحد، وكلها متشابهة جوهريًا، والفرق بينها مجرد مسألة درجة ومعدل اهتزاز، كلها من صنع المطلق، ولها وجودها حصريًا في العقل اللانهائي للمطلق.

يقسم الهرمسيون كلًا من المستويات الثلاثة الكبرى إلى سبعة مستويات صغرى، وكل منها مقسم أيضًا إلى سبعة مستويات فرعية، وجميع التقسيمات عشوائية إلى حد ما، ومتداخلة مع بعضها البعض، ومعتمدة فقط لتسهيل الدراسة والفكر العلمي.

المستوى الفيزيائي الكبير، ومستوياته السبعة الصغرى، هو ذلك التقسيم لظواهر الكون.

الكون الذي يشمل كل ما يتعلق بالفيزياء، أو الأشياء المادية، والقوى، والمظاهر. يشمل جميع أشكال ما نسميه المادة، وجميع أشكال ما نسميه الطاقة أو القوة.

ولكن يجب أن تتذكر أن الفلسفة الهرمسية لا تعترف بالمادة كشيء في حد ذاته، أو كوجود منفصل حتى في عقل المطلق. تنص التعاليم على أن المادة ليست سوى شكل من أشكال الطاقة - أي طاقة ذات معدل اهتزازات منخفض من نوع معين. وبناءً على ذلك، يصنف الهرمسيون

المادة تحت بند الطاقة، ويعطونها ثلاثة من المستويات السبعة الصغرى للمستوى الفيزيائي الأعظم.

هذه المستويات الفيزيائية السبعة الصغرى هي كما يلي:

1 .مستوى المادة (أ)

2 .مستوى المادة (ب)

3 .مستوى المادة (ج)

4 .مستوى الجوهر الأثيري

5 .مستوى الطاقة (أ)

6 .مستوى الطاقة (ب)

7 .مستوى الطاقة (ج)

يشمل مستوى المادة (أ) أشكال المادة في صورتها الصلبة والسائلة والغازية، كما هو متعارف عليه في كتب الفيزياء. أما مستوى المادة (ب) فيشمل أشكالًا أرقى وأدق للمادة، لم يُدرك العلم الحديث وجودها بعد، وهي ظاهرة المادة المشعة، في أطوارها من الراديوم، وما إلى ذلك، والتي تنتمي إلى القسم الفرعي الأدنى من هذا المستوى الأصغر. يتألف مستوى المادة (ج) من أشكالٍ من أدقّ وأرقّ مادة، لا يشكّ العلماء العاديون في وجودها. ويتكوّن مستوى المادة الأثيرية مما يُسمّيه العلم "الأثير"، وهو مادةٌ شديدةُ الرقة والمرونة، تنتشر في جميع أنحاء الفضاء الكوني، وتعمل كوسيطٍ لنقل موجات الطاقة، كالضوء والحرارة والكهرباء، إلخ. يُشكّل هذا الجوهر الأثيري رابطًا بين المادة (ما يُسمّى) والطاقة، ويشترك في طبيعة كلٍّ منهما. ومع ذلك، تُشير التعاليم الهرمسية إلى أن هذا المستوى يحتوي على سبعة أقسام فرعية (كما هو الحال في جميع المستويات الصغرى)، وأن هناك في الواقع سبعة أثيرات، بدلًا من واحد فقط.

يلي مستوى المادة الأثيرية مستوى الطاقة (أ)، الذي يضمّ الأشكال العادية للطاقة المعروفة للعلم، ومستوياته الفرعية السبعة هي، على التوالي، الحرارة؛ الضوء؛ والمغناطيسية؛ والكهرباء؛ والجاذبية (بما في ذلك الجاذبية، والتماسك، والتقارب الكيميائي، إلخ) والعديد من أشكال الطاقة الأخرى التي أشارت إليها التجارب العلمية ولكن لم تُسمَّ أو تُصنَّف بعد. يتألف مستوى الطاقة (ب) من سبعة مستويات فرعية من أشكال الطاقة العليا التي لم يكتشفها العلم بعد، والتي أُطلق عليها اسم "قوى الطبيعة الدقيقة"، والتي تُفعَّل في تجليات أشكال معينة من الظواهر العقلية، والتي تُصبح من خلالها هذه الظواهر ممكنة. يتألف مستوى الطاقة (ج) من سبعة مستويات فرعية من الطاقة عالية التنظيم لدرجة أنها تحمل العديد من خصائص

"الحياة"، ولكنها لا تُدركها عقول البشر في مستوى التطور العادي، كونها متاحة للاستخدام على كائنات المستوى الروحي وحده - فهذه الطاقة لا يمكن للإنسان العادي تصورها، ويمكن اعتبارها تقريبيًا بمثابة "القوة الإلهية". الكائنات التي تستخدمها تُعتبر "آلهة" حتى بالمقارنة مع أرقى الأنواع البشرية المعروفة لدينا.

يشمل المستوى العقلي الأعظم أشكال "الكائنات الحية" المعروفة لنا في الحياة العادية، بالإضافة إلى أشكال أخرى غير معروفة جيدًا إلا لعلم الباطن. يُعد تصنيف المستويات العقلية السبعة الصغرى مُرضيًا وتعسفيًا إلى حد ما (إلا إذا كان مصحوبًا بتفسيرات مُفصلة لا تتناسب مع غرض هذا العمل تحديدًا)، ولكن يُمكننا ذكرها. وهي كما يلي:

1 .مستوى العقل المعدني

2 .مستوى العقل العنصري (أ)

3 .مستوى العقل النباتي

4 .مستوى العقل العنصري (ب)

49

5 .مستوى العقل الحيواني

6 .مستوى العقل العنصري (ج)

7 .مستوى العقل البشري

يشمل مستوى العقل المعدني "حالات أو شروط" الوحدات أو الكيانات، أو المجموعات والتركيبات منها، التي تُحيي الأشكال المعروفة لدينا باسم "المعادن والمواد الكيميائية، إلخ". يجب عدم الخلط بين هذه الكيانات والجزيئات والذرات والجسيمات نفسها، فهذه الأخيرة ليست سوى أجسام أو أشكال مادية لهذه الكيانات، تمامًا كما أن جسد الإنسان ليس سوى شكله المادي وليس "ذاته". يمكن تسمية هذه الكيانات "أرواحًا" بمعنى ما، وهي كائنات حية ذات مستوى منخفض من التطور والحياة والعقل - أكثر بقليل من وحدات "الطاقة الحية" التي تُشكل الأقسام الفرعية العليا للمستوى الفيزيائي الأعلى. لا يُنسب العقل العادي عادةً امتلاك العقل أو الروح أو الحياة إلى عالم المعادن، لكن جميع علماء الباطن يُقرون بوجودها، ويتقدم العلم الحديث بسرعة نحو وجهة نظر الهرمسية في هذا الصدد. للجزيئات والذرات والجسيمات "مشاعر الحب والكراهية"؛ "مشاعر الإعجاب والكراهية"؛ "مشاعر الجذب والتنافر"، "مشاعر التقارب وعدم التقارب"، إلخ، وقد عبّر بعضٌ من أكثر العقول العلمية الحديثة جرأةً عن ذلك.

الرأي القائل بأن رغبة وإرادة الذرات، وانفعالاتها ومشاعرها، تختلف عن تلك الخاصة بالبشر في الدرجة فقط. ليس لدينا الوقت أو المجال لمناقشة هذه المسألة هنا. جميع علماء الباطنية يدركون أنها حقيقة، ويلجأ آخرون إلى بعض الأعمال العلمية الأحدث للتحقق من صحتها. هناك سبعة أقسام فرعية معتادة في هذا المستوى.

يشمل مستوى العقل العنصري (أ) حالة أو وضع، ودرجة التطور العقلي والحيوي لفئة من الكيانات غير معروفة للإنسان العادي، ولكن علماء الباطنية يدركونها. إنها غير مرئية للحواس البشرية العادية، ولكنها مع ذلك موجودة وتؤدي دورها في دراما الكون. تتراوح درجة ذكائها بين درجة ذكاء الكيانات المعدنية والكيميائية من جهة، ودرجة ذكاء كيانات مملكة النبات من جهة أخرى. وهناك سبعة أقسام فرعية لهذا المستوى أيضًا. يشمل مستوى العقل النباتي، بأقسامه الفرعية السبعة، حالات أو ظروف الكيانات التي تُشكل ممالك عالم النبات، والتي يُدرك الشخص الذكي ذو الخمسين عامًا ظواهرها الحيوية والعقلية جيدًا، وقد نُشرت العديد من الأعمال العلمية الجديدة والمثيرة للاهتمام حول "العقل والحياة في النباتات" خلال العقد الماضي. للنباتات حياة وعقل و"أرواح"، وكذلك الحيوانات والإنسان والإنسان الخارق.

يشمل مستوى العقل العنصري (ب)، بأقسامه الفرعية السبعة، حالات وظروف شكل أسمى من الكيانات "العنصرية" أو غير المرئية، التي تلعب دورها في العمل العام للكون، حيث يُشكل عقلها وحياتها جزءًا من المقياس بين مستوى العقل النباتي ومستوى العقل الحيواني، حيث تُشارك هذه الكيانات في طبيعة كليهما. يشمل مستوى العقل الحيواني، بأقسامه السبعة، حالات وأحوال الكيانات أو الكائنات أو النفوس، التي تُحيي أشكال الحياة الحيوانية المألوفة لنا جميعًا. ليس من الضروري الخوض في تفاصيل هذه المملكة أو مستوى الحياة، فعالم الحيوان مألوف لنا تمامًا كعالمنا.

يشمل مستوى العقل العنصري (ج)، بأقسامه السبعة، تلك الكيانات أو الكائنات، غير المرئية، مثل جميع الأشكال العنصرية، التي تشترك في طبيعة كل من الحياة الحيوانية والبشرية بدرجة وفي تركيبات معينة. أعلى الأشكال هي شبه بشرية في الذكاء.

يشمل مستوى العقل البشري، بأقسامه السبعة، تلك المظاهر من الحياة والعقلية المشتركة بين الإنسان، في درجاته ودرجاته وأقسامه المختلفة. في هذا الصدد، نود الإشارة إلى أن الإنسان العادي اليوم لا يشغل سوى القسم الرابع من مستوى العقل البشري، وأن الأذكى فقط هم من تجاوزوا حدود القسم الخامس. لقد استغرق الجنس البشري ملايين السنين للوصول إلى هذه المرحلة، وسيستغرق الأمر سنوات عديدة أخرى للانتقال إلى القسمين السادس والسابع وما بعدهما. ولكن، تذكروا، أن هناك أجناسًا سبقتنا اجتازت هذه الدرجات، ثم إلى مستويات أعلى.

جنسنا هو الخامس (مع متخلفين عن الرابع) الذي وطأ الدرب. ثم هناك قلة من النفوس المتقدمة من جنسنا تجاوزت الجماهير، وانتقلت إلى القسمين السادس والسابع، وقلة أخرى أبعد. سيكون رجل القسم السادس "الإنسان الخارق"؛ وسيكون رجل القسم السابع "الإنسان المتفوق". ٥١

في دراستنا للمستويات العقلية السبعة الصغرى، لم نتطرق إلا إلى المستويات الأولية الثلاثة بشكل عام. لا نرغب في الخوض في هذا الموضوع بالتفصيل في هذا العمل، لأنه لا ينتمي إلى هذا الجزء من الفلسفة والتعاليم العامة. ولكن يمكننا أن نقول هذا القدر، لإعطائكم فكرة أوضح، عن علاقات هذه المستويات بالمستويات الأكثر شيوعًا - للمستويات الأولية نفس العلاقة التي تربط مستويات العقلية والحياة المعدنية والنباتية والحيوانية والبشرية بالمفاتيح البيضاء على البيانو. تكفي المفاتيح البيضاء لإنتاج الموسيقى، ولكن هناك بعض المقاييس والألحان والتناغمات التي تلعب فيها المفاتيح السوداء دورها، ويكون وجودها ضروريًا. كما أنها ضرورية كـ "حلقات وصل" لحالة الروح؛ حالات الكيان، وما إلى ذلك، بين المستويات الأخرى العديدة، حيث تُحقق فيها أشكال معينة من التطور - هذه الحقيقة الأخيرة تُعطي القارئ الذي يستطيع "قراءة ما بين السطور" ضوءًا جديدًا على عمليات التطور، ومفتاحًا جديدًا للباب السري لـ"قفزات الحياة" بين مملكة ومملكة. إن ممالك العناصر العظيمة مُعترف بها تمامًا من قِبل جميع علماء الباطنية، والكتابات الباطنية مليئة بالإشارة إليها. سيتعرف قراء "سانوني" لبولوير والقصص المشابهة على الكيانات التي تسكن هذه المستويات من الحياة.

بالانتقال من المستوى العقلي الأعظم إلى المستوى الروحي الأعظم، ماذا نقول؟ كيف يُمكننا تفسير هذه الحالات العليا من الوجود، الحياة والعقل، لعقول لم تستوعب بعدُ وفهم التقسيمات الفرعية العليا لمستوى العقل البشري؟

و؟ المهمة مستحيلة. لا يسعنا إلا أن نتحدث بأعم العبارات. كيف يُوصف النور لرجل وُلد أعمى - وكيف يُوصف السكر لرجل لم يذق حلاوة قط - وكيف يُوصف الانسجام لشخص وُلد أصم؟

كل ما يمكننا قوله هو أن المستويات السبعة الصغرى للمستوى الروحي الأعظم (لكل مستوى صغرى أقسامه الفرعية السبعة) تضم كائنات تمتلك حياة وعقلًا وشكلًا أعلى بكثير من حياة إنسان اليوم، كما أن هذا الأخير أعلى من دودة الأرض أو المعدن أو حتى بعض أشكال الطاقة أو المادة. إن حياة هذه الكائنات تتجاوز حياتنا إلى حد كبير، لدرجة أننا لا نستطيع حتى التفكير في تفاصيلها؛ وعقولهم تتجاوز عقولنا إلى حد كبير، لدرجة أننا بالنسبة لهم بالكاد نفكر، وعملياتنا العقلية تبدو أقرب إلى العمليات المادية؛ المادة التي تتكون منها أشكالهم هي من أعلى مستويات المادة، بل يُقال إن بعضها "مُغطّى بطاقة نقية". ماذا يُمكن أن يُقال عن هذه الكائنات؟

على المستويات السبعة الصغرى من المستوى الروحي الأعظم، توجد كائنات يُمكننا التحدث عنها كملائكة؛ ورؤساء ملائكة؛ وأنصاف آلهة. في المستويات الصغرى الدنيا، تسكن تلك الأرواح العظيمة التي نُسميها سادةً وخبراء. وفوقهم تأتي التسلسلات الهرمية العظيمة للجيوش الملائكية، التي لا يُمكن للإنسان تصوّرها؛ وفوقهم يأتي أولئك الذين يُمكن دون خجل أن يُطلق عليهم "الآلهة"، فهم في مرتبة عالية من الوجود، فكيانهم وذكائهم وقوتهم تُشبه تلك التي تُنسبها الأجناس البشرية إلى مفاهيمهم عن الألوهية. هذه الكائنات تتجاوز حتى أعلى مستويات الخيال البشري، وكلمة "إلهي" هي الكلمة الوحيدة التي تُناسبها. يُولي العديد من هذه الكائنات، بالإضافة إلى الملائكة، اهتمامًا بالغًا بشؤون الكون ويلعبون دورًا هامًا فيه.

يُوسّع هؤلاء الآلهة الخفية والمساعدون الملائكيون نفوذهم بحرية وقوة، في عملية التطور والتقدم الكوني. وقد أدى تدخلهم ومساعدتهم العرضية في الشؤون البشرية إلى ظهور العديد من الأساطير والمعتقدات والأديان والتقاليد البشرية، في الماضي والحاضر. لقد فرضوا معرفتهم وقوتهم على العالم، مرارًا وتكرارًا، وكل ذلك بموجب قانون المطلق، بالطبع.

ولكن، مع ذلك، حتى أعلى هذه الكائنات تقدمًا لا وجود له إلا كمخلوقات لعقل المطلق وفيه، ويخضع للعمليات الكونية والقوانين الكونية. إنهم لا يزالون فانين. قد نسميهم "آلهة" إن شئنا، لكنهم ما زالوا مجرد إخوة كبار للجنس البشري، أرواح متقدمة تفوقت على إخوانها، وتخلت عن نشوة الاستيعاب المطلق، من أجل مساعدة الجنس البشري في رحلته الصاعدة على طول الطريق. لكنهم ينتمون إلى الكون، ويخضعون لشروطه - إنهم فانون - ومستواهم أدنى من مستوى الروح المطلق.

لا يستطيع إلا أكثر علماء الهرمسية تقدمًا استيعاب التعاليم الباطنية المتعلقة بحالة الوجود، والقوى المتجلية في المستويات الروحية. هذه الظاهرة أعلى بكثير من ظاهرة المستويات العقلية، لدرجة أن محاولة وصفها ستؤدي حتمًا إلى خلط في الأفكار. لا يستطيع فهم المقصود من التعاليم المتعلقة بهذه المستويات الروحية إلا أولئك الذين تدربت عقولهم بعناية على نهج الفلسفة الهرمسية لسنوات - نعم، أولئك الذين جلبوا معهم من تجسيدات أخرى المعرفة المكتسبة سابقًا -. ويعتبر الهرمسيون الكثير من هذه التعاليم الداخلية مقدسة ومهمة للغاية، بل وخطيرة على نشرها للعامة. قد يدرك الطالب الذكي ما نعنيه بهذا عندما نقول إن معنى "الروح" كما يستخدمه الهرمسيون يشبه "القوة الحية"؛ "القوة المتحركة"؛ "الجوهر الداخلي". "جوهر الحياة"، إلخ، وهو معنى لا يجب الخلط بينه وبين المعنى الشائع استخدامه مع المصطلح، أي "ديني؛ كنسي؛ روحي؛ أثيري؛ مقدس"، إلخ. يستخدم علماء الباطنية كلمة "روح" بمعنى "المبدأ المُحيي"، حاملةً معها فكرة القوة، والطاقة الحية، والقوة الغامضة، إلخ. ويعلم علماء الباطنية أن ما يُعرف لديهم بـ"القوة الروحية" يمكن استخدامه لأغراض شريرة وخيرية (وفقًا لمبدأ القطبية)، وهي حقيقة أقرتها غالبية الأديان في تصوراتها عن الشيطان،

وبعلزبول، وإبليس، ولوسيفر، والملائكة الساقطين، إلخ. وهكذا، حُفظت المعرفة المتعلقة بهذه المستويات في قدس الأقداس في جميع الأخويات الباطنية والرهبانيات الباطنية، أي في الغرفة السرية للمعبد. ولكن يمكن القول هنا أن أولئك الذين بلغوا قوى روحية عالية وأساءوا استخدامها، لديهم مصير رهيب ينتظرهم، وأن تأرجح بندول الإيقاع سيعيدهم حتمًا إلى أقصى تطرف في الوجود المادي، ومن هذه النقطة يجب عليهم العودة على خطاهم نحو الروح، على طول الجولات المتعبة على الطريق، ولكن دائمًا مع العذاب الإضافي المتمثل في وجود ذكرى باقية معهم للارتفاعات التي سقطوا منها بسبب أفعالهم الشريرة. أساطير الملائكة الساقطين مبنية على حقائق ملموسة، كما يعلم جميع علماء الباطن المتقدمين. إن السعي وراء السلطة الأنانية على المستويات الروحية يؤدي حتمًا إلى فقدان الروح الأنانية توازنها الروحي وتراجعها إلى ما كانت عليه سابقًا. ولكن حتى لمثل هذه الروح، تُمنح فرصة العودة - فتقوم هذه الأرواح برحلة العودة، وتدفع الجزاء الوخيم وفقًا للقانون الثابت.

وفي الختام، نذكركم مجددًا بأنه وفقًا لمبدأ التطابق، الذي يجسد الحقيقة: "كما في الأعلى كذلك في الأسفل، وكما في الأسفل كذلك في الأعلى"، فإن جميع المبادئ الهرمسية السبعة تعمل بكامل طاقتها على جميع المستويات العديدة، الجسدية والعقلية والروحية. وينطبق مبدأ الجوهر العقلي بالطبع على جميع المستويات، لأنها جميعًا محفوظة في عقل المطلق. يتجلى مبدأ التوافق في كل شيء، إذ يوجد توافق وتناغم وتوافق بين مختلف المستويات. يتجلى مبدأ الاهتزاز في جميع المستويات، بل في الواقع، الاختلافات نفسها التي تجعل "المستويات" تنشأ من الاهتزاز، كما شرحنا. يتجلى مبدأ القطبية في كل مستوى، حيث تبدو أطراف القطبين متقابلة ومتناقضة. يتجلى مبدأ الإيقاع في كل مستوى، حيث لحركة الظواهر مدها وجزرها، وصعودها وهبوطها، ودخولها وخروجها. يتجلى مبدأ السبب والنتيجة في كل مستوى، ولكل نتيجة سببها ولكل سبب نتيجته. يتجلى مبدأ النوع في كل مستوى، حيث تتجلى الطاقة الإبداعية دائمًا، وتعمل وفقًا لجوانبها الذكورية والأنثوية.

"كما في الأعلى كذلك في الأسفل؛ وكما في الأسفل كذلك في الأعلى." تُجسّد هذه البديهية الهرمسية العريقة أحد المبادئ العظيمة للظواهر الكونية. وبينما نواصل دراستنا للمبادئ المتبقية، سنرى بوضوح أكبر حقيقة الطبيعة الكونية لهذا المبدأ العظيم للتوافق.

55

الفصل 9. الاهتزاز

"لا شيء يستقر؛ كل شيء يتحرك؛ كل شيء يهتز." - الكيباليون.

يُجسّد المبدأ الهرمسي الثالث العظيم - مبدأ الاهتزاز - حقيقة أن الحركة تتجلى في كل شيء في الكون - وأن لا شيء ساكن - وأن كل شيء يتحرك ويهتز ويدور. وقد اعترف بهذا المبدأ الهرمسي بعض الفلاسفة اليونانيين الأوائل الذين جسدوه في أنظمتهم. ولكن، بعد ذلك، غاب عن أذهان المفكرين من خارج صفوف الهرمسية لقرون. لكن في القرن التاسع عشر، أعاد العلم الفيزيائي اكتشاف الحقيقة، وأضافت الاكتشافات العلمية في القرن العشرين دليلاً إضافياً على صحة هذه العقيدة الهرمسية العريقة.

تنص التعاليم الهرمسية على أن كل شيء ليس في حركة واهتزاز مستمرين فحسب، بل إن "الاختلافات" بين مختلف مظاهر القوة الكونية ترجع كلياً إلى اختلاف معدل الاهتزازات وطريقة حدوثها. ليس هذا فحسب، بل إن حتى المطلق، في حد ذاته، يُظهر اهتزازاً مستمراً بدرجة لا نهائية من الشدة والحركة السريعة، لدرجة أنه يمكن اعتباره عملياً ساكناً، ويوجه المعلمون انتباه الطلاب إلى حقيقة أنه حتى على المستوى المادي، يبدو الجسم المتحرك بسرعة (مثل العجلة الدوارة) ساكناً. وتنص التعاليم على أن الروح تقع عند أحد طرفي قطب الاهتزاز، بينما القطب الآخر هو بعض الأشكال الفظة للغاية للمادة. بين هذين القطبين ملايينٌ وملايينٌ من معدلات وأنماط اهتزاز مختلفة.

أثبت العلم الحديث أن كل ما نسميه مادةً وطاقةً ما هو إلا "أنماط حركة اهتزازية"، ويتجه بعض العلماء الأكثر تقدمًا بسرعة نحو آراء علماء الباطنية الذين يعتقدون أن ظواهر العقل هي أيضًا أنماط اهتزاز أو حركة. لنرَ ما يقوله العلم بشأن مسألة الاهتزازات في المادة والطاقة.

أولًا، يُعلّم العلم أن كل مادة تُظهر، بدرجةٍ ما، الاهتزازات الناشئة عن درجة الحرارة أو الحرارة. سواءٌ أكان الجسم باردًا أم ساخنًا - وكلاهما درجاتٌ من نفس الشيء - فإنه يُظهر اهتزازاتٍ حراريةً معينة، وبهذا المعنى يكون في حركةٍ واهتزاز. ثم إن جميع جسيمات المادة في حركةٍ دائرية، من الجسيم إلى الشموس. تدور الكواكب حول الشموس، والعديد منها يدور حول محاورها. تدور الشموس حول نقاط مركزية أكبر، ويُعتقد أن هذه النقاط تدور حول نقاط أكبر، وهكذا دواليك، إلى ما لا نهاية. الجزيئات التي تتكون منها أنواع المادة المختلفة تكون في حالة اهتزاز وحركة مستمرتين حول بعضها البعض وضد بعضها البعض. تتكون الجزيئات من الذرات، والتي هي أيضًا في حالة حركة واهتزاز مستمرين. تتكون الذرات من جسيمات، تُسمى أحيانًا "إلكترونات" أو "أيونات"، إلخ، وهي أيضًا في حالة حركة سريعة، تدور حول بعضها البعض، وتُظهر حالة ونمط اهتزاز سريعين للغاية. وهكذا، نرى أن جميع

أشكال المادة الاهتزاز النابض بالحياة، وفقًا لمبدأ الاهتزاز الهرمسي. وينطبق الأمر نفسه على مختلف أشكال الطاقة. يُعلّم العلم أن الضوء والحرارة والمغناطيسية والكهرباء ليست سوى أشكال من الحركة الاهتزازية، متصلة بطريقة ما بالأثير، وربما تنبعث منه.

لا يحاول العلم حتى الآن تفسير طبيعة الظاهرة المعروفة باسم التماسك، وهو مبدأ الجذب الجزيئي؛ ولا التقارب الكيميائي، وهو مبدأ الجذب الذري؛ ولا الجاذبية (أعظم ألغاز الثلاثة)، وهو مبدأ الجذب الذي يرتبط به كل جسيم أو كتلة من المادة بكل جسيم أو كتلة أخرى. لم يفهم العلم هذه الأشكال الثلاثة للطاقة بعد، ومع ذلك، يميل الكُتّاب إلى الاعتقاد بأنها أيضًا مظاهر لشكل من أشكال الطاقة الاهتزازية، وهي حقيقة آمن بها الهرمسيون وعلّموها منذ عصور.
الأثير الكوني، الذي يفترضه العلم دون فهم طبيعته بوضوح، يعتبره الهرمسيون مجرد تجلٍّ أعلى لما يُسمى خطأً مادة - أي مادة ذات درجة اهتزاز أعلى - ويُطلقون عليه اسم "الجوهر الأثيري". يُعلّم الهرمسيون أن هذا الجوهر الأثيري شديد الرقة والمرونة، وينتشر في الفضاء الكوني، ويعمل كوسيط لنقل موجات الطاقة الاهتزازية، كالحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية، إلخ. تنص التعاليم على أن الجوهر الأثيري هو حلقة وصل بين أشكال الطاقة الاهتزازية المعروفة باسم "المادة" من جهة، و"الطاقة أو القوة" من جهة أخرى؛ وأنه يُظهر درجة اهتزاز، في المعدل والوضع، خاصة به تمامًا. قدم العلماء مثالاً لعجلة أو قمة أو أسطوانة تتحرك بسرعة، لإظهار آثار زيادة معدلات الاهتزاز. يفترض هذا المثال وجود عجلة أو قمة أو أسطوانة دوارة تتحرك بسرعة منخفضة - سنسمي هذا الشيء الدوار "الجسم" عند متابعة المثال. لنفترض أن الجسم يتحرك ببطء. يمكن رؤيته بسهولة، لكن لا يصل صوت حركته إلى الأذن. تزداد السرعة تدريجيًا. في غضون لحظات، تصبح حركته سريعة جدًا بحيث يمكن سماع هدير عميق أو نغمة منخفضة. ثم مع زيادة السرعة، ترتفع النغمة واحدة في السلم الموسيقي. ثم، مع زيادة الحركة أكثر، يتم تمييز النغمة الأعلى التالية. ثم، تظهر جميع نغمات السلم الموسيقي، واحدة تلو الأخرى، وترتفع أعلى فأعلى مع زيادة الحركة. وأخيرًا، عندما تصل الحركات إلى معدل معين، يتم الوصول إلى النغمة الأخيرة التي يمكن للآذان البشرية إدراكها، ويتلاشى الصراخ الحاد الثاقب، ويتبعه الصمت. لا يُسمع صوتٌ من الجسم الدوار، فسرعة الحركة عاليةٌ جدًا لدرجة أن الأذن البشرية لا تستطيع تسجيل الاهتزازات. ثم يأتي إدراك درجات حرارة متزايدة. وبعد فترة، تلمح العين الجسم وقد تحول إلى لونٍ أحمر داكن باهت. ومع ازدياد السرعة، يزداد اللون الأحمر سطوعًا. ثم مع ازدياد السرعة، يذوب الأحمر إلى برتقالي. ثم يذوب البرتقالي إلى أصفر. ثم تتبع ذلك، على التوالي، درجات اللون الأخضر، والأزرق، والنيلي، وأخيرًا البنفسجي، مع ازدياد سرعة الحركة. ثم يتلاشى اللون البنفسجي، وتختفي جميع الألوان، فلا تستطيع العين البشرية تسجيلها. ولكن هناك أشعة غير مرئية تنبعث من الجسم الدوار، وهي الأشعة المستخدمة في التصوير، وأشعة ضوئية دقيقة أخرى. ثم تبدأ الأشعة الغريبة المعروفة باسم "الأشعة السينية"، وما إلى ذلك، في الظهور مع

تغير بنية الجسم. تنبعث الكهرباء والمغناطيسية عند بلوغ معدل الاهتزاز المناسب. وعندما يصل الجسم إلى معدل اهتزاز معين، تتفكك جزيئاته، وتتحلل إلى العناصر الأصلية أو الذرات. ثم تنفصل الذرات، وفقًا لمبدأ الاهتزاز، إلى عدد لا يُحصى من الجسيمات التي تتكون منها. وأخيرًا، تختفي الجسيمات الثمانية والخمسون، ويمكن القول إن الجسم مكون من المادة الأثيرية. لا يجرؤ العلم على اتباع هذا التوضيح أكثر من ذلك، لكن علماء الهرمسية يُعلّمون أنه إذا ازدادت الاهتزازات باستمرار، فإن الجسم سيصل إلى حالات تجلٍّ متتالية، وسيُظهر بدوره المراحل العقلية المختلفة، ثم يتجه نحو الروح، حتى يعود أخيرًا إلى المطلق، أي الروح المطلقة. مع ذلك، كان "الجسم" سيتوقف عن كونه "جسمًا" قبل وقت طويل من بلوغ مرحلة الجوهر الأثيري، ولكن بخلاف ذلك، فإن التوضيح صحيح بقدر ما يُظهر تأثير المعدلات وأنماط الاهتزاز المتزايدة باستمرار. يجب أن نتذكر، في التوضيح أعلاه، أنه في المراحل التي يُطلق فيها "الجسم" اهتزازات الضوء والحرارة وما إلى ذلك، فإنه لا "يتحلل" فعليًا إلى تلك الأشكال من الطاقة (وهي أعلى بكثير في المقياس)، ولكن ببساطة يصل إلى درجة من الاهتزاز تتحرر فيها تلك الأشكال من الطاقة، بدرجة ما، من من التأثيرات المُقيِّدة لجزيئاته وذراته وجسيماته، حسب الحالة. هذه الأشكال من الطاقة، وإن كانت أعلى بكثير في مقياسها من المادة، إلا أنها حبيسة ومحصورة في التركيبات المادية، بسبب الطاقات التي تتجلى من خلال الأشكال المادية وتستخدمها، ولكنها بذلك تتشابك وتحصر في إبداعاتها من الأشكال المادية، وهو أمر ينطبق، إلى حد ما، على جميع المخلوقات، حيث تشارك القوة الخالقة في خلقها.

لكن التعاليم الهرمسية تذهب إلى أبعد من تعاليم العلم الحديث. فهي تُعلِّم أن جميع مظاهر الفكر أو العاطفة أو العقل أو الإرادة أو الرغبة، أو أي حالة أو وضع عقلي، مصحوبة باهتزازات، يُطرح جزء منها ويميل إلى التأثير على عقول الآخرين عن طريق "الاستقراء". هذا هو المبدأ الذي يُولِّد ظاهرة "التخاطر". التأثير العقلي، وأشكال أخرى من تأثير العقل وقدرته على التأثير على العقل، والتي أصبح عامة الناس على دراية بها بسرعة، بفضل الانتشار الواسع للمعرفة الخفية من قِبل مختلف المدارس والطوائف والمعلمين على هذا المنوال في هذا الوقت.

لكل فكرة أو عاطفة أو حالة ذهنية معدلها ونمط اهتزازها المقابل. وبجهد إرادة الشخص، أو إرادة أشخاص آخرين، يمكن إعادة إنتاج هذه الحالات الذهنية، تمامًا كما يمكن إعادة إنتاج نغمة موسيقية عن طريق اهتزاز آلة موسيقية بمعدل معين - تمامًا كما يمكن إعادة إنتاج اللون بنفس المعدل. بمعرفة مبدأ الاهتزاز، كما هو مطبق على الظواهر الذهنية، يمكن للمرء أن يستقطب عقله بأي درجة يشاء، وبالتالي يكتسب سيطرة كاملة على حالاته الذهنية ومزاجه، وما إلى ذلك. وبنفس الطريقة، يمكنه التأثير على عقول الآخرين، منتجًا الحالات الذهنية المرغوبة لديهم. باختصار، قد يكون قادرًا على إنتاج ما يُنتجه العلم على المستوى العقلي، أي

"الاهتزازات الإرادية". ولا يُمكن اكتساب هذه القدرة، بالطبع، إلا من خلال التعليم السليم، والتمارين، والممارسة، وما إلى ذلك، والعلم هنا هو علم التحويل العقلي، أحد فروع الفن الهرمسي.

وإن تأملًا بسيطًا فيما قلناه سيُظهر للطالب أن مبدأ الاهتزاز يكمن وراء الظواهر العجيبة للقوة التي يُظهرها المعلمون والمُحنّكون، القادرون ظاهريًا على نقض قوانين الطبيعة، لكنهم في الواقع، يستخدمون قانونًا ضد آخر؛ ومبدأ ضد آخر؛ ويُحققون نتائجهم بتغيير اهتزازات الأشياء المادية، أو أشكال الطاقة، وبالتالي يُحققون ما يُسمى عادةً "المعجزات."

وكما قال أحد كُتّاب الهرمسيين القدماء بحق: "من يفهم مبدأ الاهتزاز، فقد أمسك بصولجان القوة."

٦٠

الفصل ١٠. القطبية

"كل شيء ثنائي؛ لكل شيء أقطاب؛ لكل شيء زوج من الأضداد؛ المتشابه والمختلف متماثلان؛ الأضداد متطابقة في طبيعتها، لكنها مختلفة في درجتها؛ تلتقي الأطراف؛ كل الحقائق ليست سوى أنصاف حقائق؛ يمكن التوفيق بين جميع المفارقات." - الكيباليون.

يجسد المبدأ الهرمسي الرابع العظيم - مبدأ القطبية - حقيقة أن كل الأشياء المتجلية لها "جانبان"؛ "وجهان"؛ "قطبان"؛ "زوج من الأضداد"، بدرجات متعددة بين الطرفين. تُفسَّر المفارقات القديمة، التي حيرت عقول البشر على الدوام، بفهم هذا المبدأ. لطالما أدرك الإنسان شيئًا مشابهًا لهذا المبدأ، وسعى للتعبير عنه بأقوال وحكم وأمثال مثل: "كل شيء يكون ولا يكون، في الوقت نفسه". "كل الحقائق ليست سوى أنصاف حقائق"؛ "كل حقيقة نصف زيف"؛ "لكل شيء وجهان" - "لكل درع وجه معاكس"، إلخ.

تنص التعاليم الهرمسية على أن الفرق بين الأشياء التي تبدو متعارضة تمامًا هو مجرد مسألة درجة.

تُعلّم أنه "يمكن التوفيق بين الأضداد"، وأن "الأطروحة ونقيضها متطابقان في طبيعتهما، لكنهما مختلفان في درجتهما"؛ وأن "التوفيق الشامل بين الأضداد" يتحقق بإدراك مبدأ القطبية هذا. يدّعي المعلمون أنه يمكن الحصول على أمثلة لهذا المبدأ من كل جانب، ومن خلال دراسة الطبيعة الحقيقية لأي شيء. يبدأون بإظهار أن الروح والمادة ليسا سوى قطبين لنفس الشيء، وأن المستويات المتوسطة ليست سوى درجات من الاهتزاز. يُظهرون أن المطلق والكثرة شيء واحد، وأن الفرق بينهما مجرد درجة من التجلي العقلي. وهكذا، فإن القانون والقوانين هما قطبان متقابلان لشيء واحد. وبالمثل، فإن المبدأ والمبادئ: عقل لا متناهي وعقول محدودة.

ثم ينتقلون إلى المستوى الفيزيائي، فيوضحون المبدأ بإظهار أن الحرارة والبرودة متطابقتان في طبيعتهما، وأن الفرق بينهما مجرد درجات. يُظهر مقياس الحرارة درجات حرارة عديدة، يُسمى القطب الأدنى "باردًا"، والأعلى "حرارة."

61

بين هذين القطبين درجات عديدة من "الحرارة" أو "البرودة"، سمّها أيًا منهما، وأنت صحيحتان تمامًا. أعلى درجتين دائمًا "أكثر دفئًا"، بينما الأدنى دائمًا "أكثر برودة". لا يوجد معيار مطلق، كل شيء مسألة درجة. لا يوجد موضع على مقياس الحرارة تتوقف فيه الحرارة ويبدأ فيه البرد. الأمر كله يتعلق باهتزازات أعلى أو أدنى. مصطلحا "مرتفع" و"منخفض"، اللذان نضطر لاستخدامهما، ليسا سوى قطبين لنفس الشيء - المصطلحان نسبيان. وهكذا مع

"الشرق والغرب" - سافر حول العالم شرقًا، وستصل إلى نقطة تُسمى الغرب عند نقطة البداية، ثم تعود من تلك النقطة الغربية.

سافر شمالًا لمسافة كافية، وستجد نفسك مسافرًا جنوبًا، أو العكس.

النور والظلام قطبان لنفس الشيء، بينهما درجات عديدة. السلم الموسيقي واحد - بدءًا من "دو" ننتقل صعودًا حتى نصل إلى "دو" أخرى، وهكذا دواليك، مع تساوي الفروق بين طرفي اللوحة، مع وجود درجات عديدة بين الطرفين. سلم الألوان واحد - الفرق الوحيد بين البنفسجي العالي والأحمر المنخفض هو الاهتزازات الأعلى والأدنى. الكبير والصغير نسبيان. وكذلك الضوضاء والهدوء؛ والصلابة والليونة تتبعان القاعدة. وكذلك الحاد والباهت. الموجب والسالب قطبان لنفس الشيء، بينهما درجات لا تُحصى.

الجيد والرديء ليسا مطلقين - فنحن نسمي أحد طرفي السلم جيدًا والآخر سيئًا، أو أحد طرفيه جيدًا والآخر شريرًا، وفقًا لاستخدام المصطلحات. يكون الشيء "أقل جودة" من الشيء الأعلى في السلم؛ لكن هذا الشيء "الأقل جودة"، بدوره، يكون "أكثر جودة" من الشيء الذي يليه - وهكذا دواليك، حيث يُنظم "الأكثر أو الأقل" حسب الموقع على السلم. وهكذا هو الحال على المستوى العقلي. يُنظر إلى "الحب والكراهية" عمومًا على أنهما شيئان متضادان تمامًا؛ مختلفان تمامًا؛ لا يمكن التوفيق بينهما. لكننا نطبق مبدأ القطبية؛ فنجد أنه لا يوجد ما يُسمى بالحب المطلق أو الكراهية المطلقة، منفصلين عن بعضهما البعض. إنهما مجرد مصطلحين يُطلقان على قطبي الشيء نفسه.

بدايةً من أي نقطة في المقياس، نجد "حبًا أكبر" أو "كراهية أقل" كلما صعدنا؛ و"كراهية أكبر" أو "حبًا أقل" كلما هبطنا، وهذا صحيح بغض النظر عن النقطة التي نبدأ منها، سواءً كانت عالية أم منخفضة. هناك درجات من الحب والكراهية، وهناك نقطة وسطى حيث يصبح "الإعجاب والكراهية" باهتين لدرجة يصعب معها التمييز بينهما.

الشجاعة والخوف يخضعان لنفس القاعدة. أزواج الأضداد موجودة في كل مكان. حيث تجد شيئًا تجد نقيضه - القطبان. وهذه الحقيقة هي التي تُمكّن الهرمسي من تحويل حالة ذهنية إلى أخرى، على غرار الاستقطاب. لا يمكن للأشياء التي تنتمي إلى فئات مختلفة أن تتحول إلى بعضها البعض، ولكن الأشياء من نفس الفئة قد تتغير، أي قد تتغير قطبيتها. وهكذا، لا يتحول الحب أبدًا إلى شرق أو غرب، أو أحمر أو بنفسجي، ولكنه قد يتحول، وكثيرًا ما يتحول، إلى كراهية، وبالمثل، قد يتحول الكراهية إلى حب، بتغيير قطبيته. قد تتحول الشجاعة إلى خوف، والعكس صحيح. قد تصبح الأشياء الصلبة لينة. الأشياء الباهتة تصبح حادة. الأشياء الساخنة تصبح باردة. وهكذا، يكون التحول دائمًا بين أشياء من نفس النوع بدرجات مختلفة. خذ حالة رجل خائف. برفع ذبذباته الذهنية على خط الخوف - الشجاعة، يمكن أن يمتلئ بأعلى درجات

الشجاعة والجرأة. وبالمثل، قد يُحوّل الإنسان الكسول نفسه إلى فرد نشيط وحيوي بمجرد استقطابه وفق معايير الصفة المطلوبة.

الطالب المُلِم بالعمليات التي تُحدث بها مدارس العلوم العقلية المختلفة، وما إلى ذلك، تغييرات في الحالات العقلية لمن يتبعون تعاليمها، قد لا يفهم بسهولة المبدأ الكامن وراء العديد من هذه التغييرات. ومع ذلك، عندما يُدرك مبدأ القطبية، ويُرى أن التغيرات العقلية ناتجة عن تغيير في القطبية - أي انزلاق على نفس النطاق - يُفهم صانع القبعات بسهولة. التغيير ليس في طبيعة تحويل شيء إلى شيء آخر مختلف تمامًا - بل هو مجرد تغيير في الدرجة في نفس الأشياء، وهو فرق بالغ الأهمية. على سبيل المثال، باستعارة تشبيه من المستوى الفيزيائي، من المستحيل تحويل الحرارة إلى حدة، أو علو، أو سمو، وما إلى ذلك، ولكن يمكن تحويل الحرارة بسهولة إلى برودة، بمجرد خفض الاهتزازات. بنفس الطريقة، الكراهية والحب قابلان للتحول المتبادل؛ وكذلك الخوف والشجاعة. لكن لا يمكن تحويل الخوف إلى حب، ولا يمكن تحويل الشجاعة إلى كراهية. تنتمي الحالات العقلية إلى فئات لا حصر لها، ولكل فئة منها أقطابها المتقابلة، والتي يكون التحول ممكنًا على طولها.

63

سيدرك الطالب بسهولة أنه في الحالات العقلية، وكذلك في ظواهر المستوى المادي، يمكن تصنيف القطبين إلى إيجابي وسلبي على التوالي. وهكذا، يكون الحب إيجابيًا للكراهية، والشجاعة للخوف، والنشاط لعدم النشاط، وهكذا، وهكذا. وسيلاحظ أيضًا حتى لمن لا يعرفون مبدأ الاهتزاز، يبدو القطب الموجب أعلى درجة من القطب السالب، ويسيطر عليه بسهولة. تميل الطبيعة نحو النشاط المسيطر للقطب الموجب.

بالإضافة إلى تغيير أقطاب الحالات العقلية للفرد من خلال فن الاستقطاب، تُظهر لنا ظاهرة التأثير العقلي، بمراحلها المتعددة، أن المبدأ يمكن أن يمتد ليشمل ظواهر تأثير عقل على عقل آخر، والتي كُتب عنها ودُرِّس الكثير في السنوات الأخيرة. عندما يُفهم أن الاستقراء العقلي ممكن، أي أن الحالات العقلية يمكن أن تُنتَج عن طريق "الاستقراء" من الآخرين، يمكننا أن نرى بسهولة كيف يمكن نقل معدل اهتزاز معين، أو استقطاب حالة عقلية معينة، إلى شخص آخر، وبالتالي تتغير قطبيته في تلك الفئة من الحالات العقلية. بناءً على هذا المبدأ، تُحصل على نتائج العديد من "العلاجات العقلية". على سبيل المثال، يكون الشخص "كئيبًا" وكئيبًا وممتلئًا بالخوف. عالم عقلي يُحسّن من حالته العقلية إلى الاهتزاز المطلوب بإرادته المُدربة، وبالتالي يحصل على الاستقطاب المطلوب في حالته، ثم يُنتج حالة عقلية مماثلة لدى الآخر عن طريق الاستقراء، وتكون النتيجة ارتفاع الاهتزازات واستقطاب الشخص نحو الطرف الإيجابي من المقياس بدلًا من الطرف السلبي، ويتحول خوفه ومشاعره السلبية الأخرى إلى شجاعة

وحالات عقلية إيجابية مماثلة. ستُظهر لك دراسة صغيرة أن هذه التغيرات العقلية تكاد تكون جميعها على طول خط الاستقطاب، وأن التغيير هو تغيير في الدرجة لا في النوع. إن معرفة وجود هذا المبدأ الهرمسي العظيم ستُمكّن الطالب من فهم حالته العقلية وحالات الآخرين بشكل أفضل. سيدرك أن هذه الحالات كلها مسائل درجات، وبذلك، سيتمكن من رفع أو خفض الاهتزازات بإرادته - لتغيير أقطابه العقلية، وبالتالي سيُصبح سيدًا على حالاته العقلية، بدلًا من أن يكون خادمًا لها. وبمعرفته، سيتمكن من مساعدة زملائه

64

بذكاء وبالطرق المناسبة لتغيير القطبية عندما يكون ذلك مطلوبًا. ننصح جميع الطلاب بالتعرف على مبدأ القطبية هذا، لأن الفهم الصحيح له سيُلقي الضوء على العديد من المواضيع الصعبة.

الفصل الحادي عشر: الإيقاع

"كل شيء يتدفق للخارج وللداخل؛ لكل شيء مده وجزره؛ كل شيء يرتفع وينخفض؛ يتجلى تأرجح البندول في كل شيء؛ مقدار التأرجح إلى اليمين هو مقدار التأرجح إلى اليسار؛ الإيقاع يُعوّض" - الكيباليون.

يُجسّد المبدأ الهرمسي الخامس العظيم - مبدأ الإيقاع - حقيقة أن في كل شيء حركة مُقاسة؛ حركة ذهابًا وإيابًا؛ تدفقًا وتدفقًا؛ تأرجحًا للأمام والخلف؛ حركة تشبه حركة البندول؛ مدًا وجزرًا يشبهان المد والجزر؛ بين القطبين يتجلى على المستويات المادية أو العقلية أو الروحية. يرتبط مبدأ الإيقاع ارتباطًا وثيقًا بمبدأ القطبية الموصوف في الفصل السابق. يتجلى الإيقاع بين القطبين اللذين يحددهما مبدأ القطبية. هذا لا يعني، مع ذلك، أن بندول الإيقاع يتأرجح نحو القطبين المتطرفين، فهذا نادر الحدوث؛ بل يصعب تحديد القطبين المتطرفين في أغلب الحالات. لكن التأرجح يكون دائمًا "باتجاه" أحد القطبين أولًا، ثم الآخر.

هناك دائمًا فعل ورد فعل؛ تقدم وتراجع؛ صعود وهبوط؛ يتجلى في جميع أطياف الكون وظواهره. الشموس، العوالم، البشر، الحيوانات، النباتات، المعادن، القوى، الطاقة، العقل والمادة، نعم، حتى الروح، تُجسّد هذا المبدأ. يتجلى المبدأ في خلق العوالم وتدميرها؛ في صعود الأمم وسقوطها؛ في تاريخ حياة كل شيء؛ وأخيرًا في الحالات العقلية للإنسان.

بدءًا من تجليات الروح - أي المطلق - سيُلاحظ أن هناك دائمًا فيضًا وسحبًا؛ "زفير واستنشاق براهم"، كما يصفه البراهميون. تُخلق الأكوان؛ تصل إلى أدنى نقطة في ماديتها؛ ثم تبدأ في تأرجحها التصاعدي. تولد الشموس، وعند بلوغها ذروة قوتها، تبدأ عملية التراجع، وبعد دهور تصبح كتلًا ميتة من المادة، تنتظر دفعة أخرى تُعيد تنشيط طاقاتها الداخلية، وتبدأ دورة حياة شمسية جديدة. وهكذا هو الحال مع جميع العوالم؛ تولد وتنمو وتموت؛ لتولد من جديد. وهكذا هو الحال مع جميع الأشياء ذات الشكل والهيئة؛ تتأرجح من الفعل إلى رد الفعل؛ من الولادة إلى الموت؛ من النشاط إلى الخمول - ثم تعود مرة أخرى. وهكذا هو الحال مع جميع الكائنات الحية؛ تولد وتنمو وتموت - ثم تولد من جديد. وهكذا هو الحال مع جميع الحركات العظيمة، والفلسفات، والعقائد، والأزياء، والحكومات، والأمم، وكل شيء آخر - الولادة، والنمو، والنضج، والانحطاط، والموت - ثم الميلاد الجديد. تأرجح البندول واضحٌ دائمًا.

يتبع الليل النهار؛ والنهار ليل. يتأرجح البندول من الصيف إلى الشتاء، ثم يعود. تتأرجح الجسيمات والذرات والجزيئات، وجميع كتل المادة، حول دائرة طبيعتها. لا وجود لسكون مطلق، أو توقف عن الحركة، فكل حركة تُشارك في الإيقاع. هذا المبدأ ذو تطبيق عالمي. يُمكن تطبيقه على أي مسألة، أو ظاهرة في أيٍّ من مستويات الحياة العديدة. يُمكن تطبيقه على

جميع مراحل النشاط البشري. هناك دائمًا تأرجح إيقاعي من قطب إلى آخر. البندول الكوني في حركة دائمة.

تتدفق تيارات الحياة جيئة وذهابًا، وفقًا لقانون.

مبدأ الإيقاع مفهوم جيدًا في العلم الحديث، ويُعتبر قانونًا عالميًا عند تطبيقه على الأشياء المادية. لكن الهرمسيين يذهبون بهذا المبدأ إلى أبعد من ذلك بكثير، ويعلمون أن مظاهره وتأثيره يمتد إلى الأنشطة العقلية للإنسان، وأنه يفسر التتابع المحير للأمزجة والمشاعر وغيرها من التغيرات المزعجة والمحيرة التي نلاحظها في أنفسنا. لكن الهرمسيين، بدراسة عمليات هذا المبدأ، تعلموا كيفية التخلص من بعض أنشطته عن طريق التحول.

اكتشف أساتذة الهرمسيين منذ زمن بعيد أنه بينما كان مبدأ الإيقاع ثابتًا، ودائم الظهور في الظواهر العقلية، إلا أنه لا يزال هناك مستويان لتجلياته فيما يتعلق بالظواهر العقلية. اكتشفوا أن هناك مستويين عامين للوعي، الأدنى والأعلى، وفهمهما مكّنهم من الصعود إلى المستوى الأعلى، وبالتالي الهروب من تأرجح البندول الإيقاعي الذي يتجلى في المستوى الأدنى. بعبارة أخرى، حدث تأرجح البندول على المستوى اللاواعي، ولم يتأثر الوعي. يُطلقون على هذا قانون التحييد. وتتمثل عملياته في رفع الأنا فوق ذبذبات المستوى اللاواعي للنشاط العقلي، بحيث لا يتجلى التأرجح السلبي للبندول في الوعي، وبالتالي لا يتأثر. يشبه هذا الارتفاع فوق شيء وتركه يمر من تحتك.

يستقطب المعلم الهرمسي، أو الطالب المتقدم، نفسه عند القطب المطلوب، وبعملية تُشبه "رفض" المشاركة في التأرجح العكسي، أو إن شئت، "إنكار" تأثيره عليه، فإنه يقف يستقر في موضعه المستقطب، ويسمح للبندول العقلي بالتأرجح عائدًا على مستوى اللاوعي. جميع الأفراد الذين بلغوا درجة من ضبط النفس، يُحققون ذلك، دون علمهم تقريبًا، وبرفضهم السماح لمزاجهم وحالاتهم العقلية السلبية بالتأثير عليهم، يُطبقون قانون التحييد. ومع ذلك، يُحقق المعلم هذا إلى درجة أعلى بكثير من الكفاءة، وباستخدام إرادته، يُحقق درجة من الاتزان والثبات العقلي يكاد يكون من المستحيل تصديقها من جانب أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بأن يتأرجحوا ذهابًا وإيابًا بواسطة بندول المزاج والمشاعر العقلي.

سيُقدّر أهمية هذا أي شخص مُفكّر يُدرك مدى تنوع أمزجة ومشاعر وانفعالات غالبية الناس، ومدى ضآلة سيطرتهم على أنفسهم. إذا توقفتَ للحظةٍ وتأملتَ، ستُدرك كم أثّرت هذه التقلبات الإيقاعية عليك في حياتك - كيف أن فترةً من الحماس أعقبها دائمًا شعورٌ ومزاجٌ مُعاكسٌ من الاكتئاب. وبالمثل، فإنّ مزاجك وفترات شجاعتك قد أعقبتها حالاتٌ مُماثلة من الخوف. وهكذا كان الحال دائمًا مع غالبية الناس - فقد ارتفعت وهبطت موجاتٌ من المشاعر معهم، لكنهم لم يُدركوا أبدًا سببَ أو علّةَ الظواهر العقلية. إن فهمَ آلياتِ هذا المبدأ سيُعطي المرءَ مفتاحَ إتقانِ

هذه التقلبات الإيقاعية للشعور، وسيُمكّنه من معرفةِ نفسهِ بشكل أفضل، وتجنبِ الانجرافِ وراءَ هذه التدفقاتِ الداخلةِ والخارجة. الإرادةُ أسمى من التجلي الواعي لهذا المبدأ، مع أن المبدأَ نفسه لا يُمكن تدميره أبدًا. قد نُفلتُ من آثاره، لكن المبدأَ يعملُ مع ذلك. يتأرجح البندول باستمرار، وإن كنا قد نتجنب الانجراف معه.

هناك سمات أخرى لعمل مبدأ الإيقاع هذا، نود التحدث عنها الآن. يدخل في عمله ما يُعرف بقانون التعويض. أحد تعريفات أو معاني كلمة "تعويض" هو "موازنة"، وهو المعنى الذي يستخدمه الهرمسيون. يشير الكيباليون إلى قانون التعويض هذا عندما يقول: "مقدار التأرجح إلى اليمين هو مقدار التأرجح إلى اليسار؛ الإيقاع يُعوض."

ينص قانون التعويض على أن التأرجح في اتجاه واحد يُحدد التأرجح في الاتجاه المعاكس، أو إلى القطب المقابل - أحدهما يُوازن الآخر، أو يُوازنه. على المستوى الفيزيائي، نرى أمثلة عديدة على هذا القانون. يتأرجح بندول الساعة مسافة معينة إلى اليمين، ثم مسافة مساوية إلى اليسار. تتوازن الفصول بنفس الطريقة. ويتبع المد والجزر القانون نفسه. ويتجلى القانون نفسه في جميع ظواهر الإيقاع. فالبندول، بتأرجحه القصير في اتجاه، لا يتأرجح إلا تأرجحًا قصيرًا في الاتجاه الآخر؛ بينما التأرجح الطويل إلى اليمين يعني دائمًا تأرجحًا طويلًا إلى اليسار. والجسم الذي يُقذف لأعلى إلى ارتفاع معين يقطع مسافة مساوية عند عودته. والقوة التي تُقذف بها المقذوفة لأعلى ميلًا تتكرر عند عودة المقذوف إلى الأرض في رحلة عودته. هذا القانون ثابت على المستوى المادي، كما ستوضح لك المراجع المرجعية.

لكن علماء الهرمسية يذهبون به إلى أبعد من ذلك. فهم يُعلّمون أن الحالات العقلية للإنسان تخضع لنفس القانون. فالإنسان الذي يستمتع بشدة، يتعرض لمعاناة شديدة؛ بينما من لا يشعر إلا بقليل من الألم لا يستطيع إلا أن يشعر إلا بقليل من الفرح. أما الخنزير، فلا يعاني إلا قليلاً عقليًا، ولا يستمتع إلا قليلاً - فهو يُعوّض. ومن ناحية أخرى، هناك حيوانات أخرى تستمتع بشدة، لكن جهازها العصبي ومزاجها يُسببان لها معاناةً شديدة من الألم، وكذلك الإنسان. هناك مزاجات لا تسمح إلا بدرجات منخفضة من المتعة، ودرجات منخفضة بنفس القدر من المعاناة؛ بينما هناك مزاجات أخرى تسمح بأشد المتعة، ولكن أيضًا بأشد المعاناة. القاعدة هي أن قدرة كل فرد على تحمل الألم واللذة متوازنة. قانون التعويض يعمل بكامل طاقته هنا.

لكن الهرمسيين يذهبون إلى أبعد من ذلك في هذه المسألة. فهم يُعلّمون أنه قبل أن يتمكن المرء من الاستمتاع بدرجة معينة من المتعة، يجب أن يكون قد تأرجح، بالتناسب، نحو القطب الآخر من الشعور. ومع ذلك، فهم يرون أن السلبي يسبق الإيجابي في هذه المسألة، أي أنه عند تجربة درجة معينة من المتعة، لا يعني ذلك بالضرورة أنه سيضطر إلى "التعويض عنها" بدرجة مماثلة من الألم؛ على العكس من ذلك، فإن المتعة هي التأرجح الإيقاعي، وفقًا لقانون

التعويض، لدرجة من الألم الذي سبق اختباره إما في الحياة الحاضرة، أو في تجسد سابق. وهذا يُلقي ضوءًا جديدًا على مشكلة الألم.

يعتبر الهرمسيون سلسلة الحيوات متصلة، وتشكل جزءًا من حياة الفرد، وبالتالي فإن الإيقاع يُفهم الجناح بهذه الطريقة، بينما سيكون بلا معنى ما لم تُسلّم بحقيقة التناسخ.

لكنّ الهرمسيين يدّعون أن المعلم أو الطالب المتقدم قادر، إلى حدٍّ كبير، على التملص من الانحدار نحو الألم، من خلال عملية التحييد المذكورة آنفًا. بالارتقاء إلى المستوى الأعلى من الأنا، يُجنّب الكثير من التجارب التي يمرّ بها من يسكنون المستوى الأدنى ويُفلتون منها.

يلعب قانون التعويض دورًا هامًا في حياة الرجال والنساء. سيُلاحظ أن المرء عادةً "يدفع ثمن" أي شيء يمتلكه أو يفتقر إليه. إذا امتلك شيئًا، افتقر إلى آخر - وهكذا يُصبح التوازن. لا أحد يستطيع "الاحتفاظ بفلسه والحصول على قطعة الكعكة" في آنٍ واحد. لكل شيء جوانبه الممتعة وغير الممتعة. الأشياء التي يكسبها المرء تُدفع دائمًا مقابل الأشياء التي يفقدها. يملك الأغنياء الكثير مما يفتقر إليه الفقراء، بينما غالبًا ما يملك الفقراء أشياءً بعيدة المنال. قد يميل المليونير إلى التباهي، ويملك الثروة التي تُمكّنه من تأمين جميع مُتع ورفاهية المائدة، بينما يفتقر هو إلى الرغبة في الاستمتاع بها؛ يحسد شهية العامل وهضمه الذي يفتقر إلى ثروة المليونير وميوله، والذي يستمتع بطعامه البسيط أكثر مما يمكن أن يحصل عليه المليونير حتى لو لم تكن شهيته مُنهكة، أو هضمه مُتعثّرًا، لأن الرغبات والعادات والميول تختلف. وهكذا هو الحال طوال الحياة.

قانون التعويض يعمل دائمًا، يسعى جاهدًا لتحقيق التوازن والتوازن، وينجح دائمًا مع مرور الوقت، حتى وإن تطلب الأمر عدة أرواح لعودة تأرجح بندول الإيقاع. ٧٠

الفصل ١٢. السببية

"لكل سببٍ نتيجة، ولكل نتيجة سببها، وكل شيء يحدث وفقًا لقانون؛ والصدفة ليست سوى اسمٍ لقانونٍ غير مُدرَك؛ فهناك مستوياتٌ عديدةٌ للسببية، ولكن لا شيء يفلت من القانون." - الكيباليون.

يُجسّد المبدأ الهرمسي السادس العظيم - مبدأ السبب والنتيجة - حقيقة أن القانون يسود الكون؛ وأن لا شيء يحدث بالصدفة؛ وأن الصدفة مجرد مصطلحٍ يُشير إلى وجود سببٍ غير مُدرَك أو مُدرَك؛ وأن الظواهر مستمرة، دون انقطاع أو استثناء.

يُشكّل مبدأ السبب والنتيجة أساسًا لجميع الفكر العلمي، القديم والحديث، وقد عبّر عنه مُعلّمو الهرمسية في العصور الأولى.

ورغم نشوء خلافاتٍ عديدةٍ ومختلفةٍ بين المدارس الفكرية المختلفة منذ ذلك الحين، إلا أن هذه الخلافات كانت تدور بشكلٍ رئيسي حول تفاصيل عمليات المبدأ، وفي كثيرٍ من الأحيان حول معنى بعض الكلمات. لقد تقبّل جميع مفكري العالم الجديرين بهذا الاسم تقريبًا مبدأ السبب والنتيجة الأساسي على أنه صحيح. إن التفكير بخلاف ذلك يعني إخراج ظواهر الكون من نطاق القانون والنظام، وإخضاعها لسيطرة شيء وهمي أطلق عليه الناس اسم "الصدفة."

بقليل من التفكير، سيُظهر لأي شخص أنه لا وجود في الواقع لما يُسمى بالصدفة المحضة. يُعرّف قاموس ويبستر كلمة "الصدفة" على النحو التالي: "فاعل أو أسلوب نشاط مُفترض بخلاف القوة أو القانون أو الغرض؛ عمل أو نشاط هذا الفاعل؛ النتيجة المُفترضة لهذا الفاعل؛ وقوع؛ صدفة؛ حادثة، إلخ". لكن ببضع تفكير، سيُظهر لك أنه لا يمكن أن يكون هناك فاعل يُسمى "الصدفة"، بمعنى شيء خارج القانون - شيء خارج السبب والنتيجة. كيف يُمكن أن يكون هناك شيء مؤثر في الكون الظاهري، مستقلًا عن قوانينه ونظامه واستمراريته؟ سيكون هذا الشيء مستقلاً تمامًا عن النظام الكوني، وبالتالي متفوقًا عليه. لا يمكننا أن نتخيل شيئًا خارج المطلق خارجًا عن القانون، وذلك فقط لأن المطلق هو القانون في حد ذاته. لا مكان في الكون لشيء خارج عن القانون ومستقل عنه. وجود هذا الشيء سيجعل جميع القوانين الطبيعية غير فعالة، وسيُغرق الكون في فوضى عارمة وانعدام للقانون. سيُظهر الفحص الدقيق أن ما نسميه "صدفة" هو مجرد تعبير يتعلق بأسباب غامضة؛ أسباب لا نستطيع إدراكها؛ أسباب لا نستطيع فهمها. كلمة "صدفة" مشتقة من كلمة تعني "السقوط" (مثل سقوط النرد)، والفكرة هي أن سقوط النرد (والعديد من الأحداث الأخرى) هو مجرد "حدث" لا علاقة له بأي سبب. وهذا هو المعنى الذي يُستخدم به المصطلح عمومًا. ولكن عند التدقيق في الأمر، يتبين أنه لا يوجد أي احتمال لسقوط النرد. ففي كل مرة يسقط فيها حجر نرد، ويُظهر رقمًا معينًا، فإنه يخضع

لقانون لا يخطئ، تمامًا مثل القانون الذي يحكم دوران الكواكب حول الشمس. وخلف سقوط حجر النرد، توجد أسباب، أو سلاسل من الأسباب، تمتد إلى أبعد مما يستطيع العقل إدراكه.

موضع حجر النرد في الصندوق؛ وكمية الطاقة العضلية المبذولة في الرمي؛ وحالة الطاولة، إلخ، إلخ، كلها عوامل تؤثر في أسبابٌ ظاهرةٌ، وآثارها ظاهرة. لكن وراء هذه الأسباب الظاهرة، توجد سلاسلٌ من أسبابٍ سابقةٍ غير ظاهرة، جميعها كان لها تأثيرٌ على عددِ النرد الذي سقط في الأعلى. إذا رُمي نردٌ عددًا كبيرًا من المرات، فسيُوجد أن الأرقام الظاهرة ستكون متساويةً تقريبًا، أي سيكون هناك عددٌ متساوٍ من النرد ذي البقعة الواحدة، والنقطتين، إلخ، التي ستسقط في الأعلى. ارمِ بنسًا في الهواء، وقد يسقط إما "صورة" أو "كتابة"؛ لكن إذا رمى عددًا كافيًا من المرات، فستتساوى الصور والكتابة تقريبًا. هذه هي آلية قانون المتوسط. لكن كلًا من المتوسط والرمية الواحدة يخضعان لقانون السبب والنتيجة، وإذا استطعنا فحص الأسباب السابقة، فسيتضح لنا بوضوح أنه من المستحيل أن يسقط النرد بطريقةٍ أخرى غير التي سقط بها، في نفس الظروف وفي نفس الوقت. إذا اتُّبعت الأسباب نفسها، فستتبعها النتائج نفسها. لكل حدث سببٌ وسبب. لا يحدث شيءٌ أبدًا دون سبب، أو بالأحرى سلسلة من الأسباب.

وقد نشأ بعض الالتباس في أذهان من فكّروا في هذا المبدأ، من عجزهم عن تفسير كيف يُمكن لشيءٍ أن يُسبّب شيئًا آخر - أي أن يكون "خالقًا" للشيء الثاني. في الواقع، لا يُسبّب شيءٌ أو "يخلق" شيئًا آخر. السبب 72 والنتيجة لا يُعالجان سوى "الأحداث". "الحدث" هو "ما يأتي، أو يصل، أو يحدث، كنتيجة أو تبعة لحدثٍ سابق". لا يُوجد حدثٌ "يُنشئ" حدثًا آخر، بل هو مجرد حلقة سابقة في سلسلة الأحداث المُنتظمة العظيمة المُنبعثة من الطاقة الخلاقة للمطلق. هناك استمرارية بين جميع الأحداث السابقة، واللاحقة، واللاحقة. هناك علاقة قائمة بين كل ما سبق، وكل ما يليه. ينخلع حجر من جانب جبل ويصطدم بسقف كوخ في الوادي. للوهلة الأولى، نعتبر هذا تأثيرًا صدفيًا، ولكن عندما ندرس الأمر، نجد وراءه سلسلة طويلة من الأسباب. أولًا، كان المطر الذي لَيّن الأرض التي تحمل الحجر، مما سمح له بالسقوط؛ ثم كان وراء ذلك تأثير الشمس، والأمطار الأخرى، وما إلى ذلك، التي تفتت تدريجيًا قطعة الصخر عن قطعة أكبر؛ ثم كانت هناك الأسباب التي أدت إلى تشكل الجبل، واضطرابه بفعل تقلبات الطبيعة، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية. ثم يمكننا تتبع الأسباب وراء المطر، وما إلى ذلك. ثم يمكننا النظر في وجود السقف. باختصار، سنجد أنفسنا قريبًا متورطين في شبكة من الأسباب والنتائج، وسنسعى جاهدين للخروج منها. كما أن للرجل أبوين، وأربعة أجداد، وثمانية أجداد أجداد، وستة عشر جدًّا من أجداد ... من بين سلسلة الأحداث الناجمة عن تلك الكمية الضئيلة من السخام، كانت كتابة هذه السطور، التي دفعت عامل الطباعة إلى القيام بعمل معين؛ والمدقق اللغوي إلى القيام بالمثل؛ والتي ستثير أفكارًا معينة في ذهنك، وفي أذهان الآخرين،

والتي بدورها ستؤثر على الآخرين، وهكذا دواليك، تتجاوز قدرة الإنسان على التفكير بشكل أعمق - وكل ذلك من خلال مرور كمية ضئيلة من السخام، مما يُظهر نسبية الأشياء وترابطها، وحقيقة أخرى مفادها أنه "لا يوجد كبير؛ ولا صغير، في العقل الذي يُسبب كل شيء."

توقف للحظة وفكر. لو لم يلتقِ رجلٌ ما بفتاةٍ ما، في زمنٍ سحيق من العصر الحجري - لما كنتَ أنت الذي تقرأ هذه السطور الآن هنا. ولو لم يلتقِ الزوجان، لما كنا نحن الذين نكتب هذه السطور الآن هنا. إن فعل الكتابة من جانبنا، وفعل القراءة من جانبك، لن يؤثر فقط على حياتك وحياتنا، بل سيؤثر أيضًا بشكل مباشر أو غير مباشر على العديد من الأشخاص الآخرين الذين يعيشون الآن والذين سيعيشون في العصور القادمة. كل فكرة نفكر فيها، وكل فعل نقوم به، له نتائجه المباشرة وغير المباشرة التي تندرج ضمن سلسلة السبب والنتيجة الكبرى. لا نرغب في الخوض في مسألة الإرادة الحرة، أو الحتمية، في هذا العمل، لأسباب عديدة. من بين الأسباب العديدة، السبب الرئيسي هو أن أيًا من جانبي هذا الجدل ليس على حق تمامًا - في الواقع، كلا الطرفين جوانبها صحيحة جزئيًا، وفقًا للتعاليم الهرمسية. يُظهر مبدأ القطبية أن كليهما ليس سوى أنصاف حقائق، قطبي الحقيقة المتعارضين. تنص التعاليم على أن الإنسان قد يكون حرًا ومع ذلك مقيدًا بالضرورة، وذلك حسب معنى المصطلحات، ومستوى الحقيقة التي يُفحص منها الأمر. عبّر الكُتّاب القدماء عن الأمر على النحو التالي: "كلما ابتعدت الخليقة عن المركز، ازدادت قيودها؛ وكلما اقتربت من المركز، ازدادت حريتها."

غالبية الناس، إلى حد ما، عبيد للوراثة والبيئة، وما إلى ذلك، ولا يُظهرون إلا القليل جدًا من الحرية. إنهم يتأثرون بآراء وعادات وأفكار العالم الخارجي، وكذلك بعواطفهم ومشاعرهم وأمزجتهم، وما إلى ذلك. لا يُظهرون أي سيطرة جديرة بهذا الاسم. إنهم ينكرون هذا الادعاء بسخط، قائلين: "أنا حرٌّ بالتأكيد في التصرف وفعل ما يحلو لي - أفعل ما أريده تمامًا"، لكنهم يفشلون في تفسير من أين تنشأ "الرغبة" و"كما يحلو لي". ما الذي يجعلهم "يريدون" فعل شيءٍ ما على حساب آخر؛ ما الذي يجعلهم "يرجون" فعل هذا، وعدم فعله؟ ألا يوجد "لأن" في "إرضائهم" و"رغبتهم"؟ يستطيع المعلم أن يحوّل هذه "الإرضاءات" و"الرغبات" إلى أخرى في الطرف الآخر من القطب العقلي. إنه قادر على "إرادة الإرادة"، بدلًا من الإرادة لأن شعورًا ما، أو مزاجًا، أو عاطفة، أو إيحاءً بيئيًا يثير في نفسه ميلًا أو رغبةً في فعل ذلك. غالبية الناس ينساقون كحجر ساقط، خاضعين للبيئة والمؤثرات الخارجية والمزاج الداخلي والرغبات، وما إلى ذلك، ناهيك عن رغبات وإرادات الآخرين الأقوى منهم، والوراثة والبيئة والإيحاء، فيُساقون معهم دون مقاومة من جانبهم، أو ممارسة للإرادة. يتحركون كبيادق على رقعة شطرنج الحياة، فيؤدون أدوارهم، ثم يُتركون جانبًا بعد انتهاء اللعبة. أما الأسياد، فهم يعرفون قواعد اللعبة، ويرتفعون فوق مستوى الحياة المادية، ويتصلون بالقوى العليا في

طبيعتهم، ويسيطرون على مزاجهم وشخصياتهم وصفاتهم وتناقضاتهم، بالإضافة إلى البيئة المحيطة بهم، وبالتالي يصبحون محركين في اللعبة، بدلًا من بيادق - أسباب بدلًا من نتائج. الأسياد لا يهربون من سببية المستويات العليا، بل ينسجمون مع القوانين العليا، وبالتالي يسيطرون على الظروف في المستوى الأدنى. إنهم بذلك يشكلون جزءًا واعيًا من القانون، بدلًا من أن يكونوا مجرد أدوات عمياء. فبينما يخدمون في المستويات العليا، فإنهم يحكمون المستوى المادي.

ولكن، في الأعلى والأسفل، القانون يعمل دائمًا. لا وجود للصدفة. لقد ألغى العقل الإلهة العمياء. نستطيع أن نرى الآن، بعيون صافية بالمعرفة، أن كل شيء يحكمه قانون كوني - وأن القوانين اللامتناهية ليست سوى تجليات للقانون الأعظم الواحد - القانون الذي هو الكل. صحيحٌ حقًا أن عصفورًا واحدًا لا يسقط دون أن يلاحظه عقل الكل - وأن حتى شعر رؤوسنا معدود - كما قالت الكتب المقدسة. لا يوجد شيء خارج القانون؛ لا شيء يحدث على عكسه. ومع ذلك، لا تخطئ في افتراض أن الإنسان ليس سوى آلة عمياء - بعيدًا كل البعد عن ذلك. تنص التعاليم الهرمسية على أن الإنسان يستطيع استخدام القانون للتغلب على القوانين، وأن الأعلى سينتصر دائمًا على الأدنى، حتى يصل أخيرًا إلى المرحلة التي يلجأ فيها إلى القانون نفسه، ويسخر من القوانين الظاهرية. هل تستطيع استيعاب المعنى الباطني لهذا؟

75

الفصل 13. الجندر

"الجندر موجود في كل شيء؛ لكل شيء مبادئه المذكر والمؤنث؛ يتجلى الجندر في جميع المستويات." - الكيباليون.

يجسد المبدأ الهرمسي السابع العظيم - مبدأ الجندر - حقيقة أن الجندر يتجلى في كل شيء - وأن المبادئ المذكر والمؤنث حاضرة دائمًا ونشطة في جميع مراحل الظواهر، في كل مستوى من مستويات الحياة. في هذه المرحلة، نرى أنه من الجيد لفت انتباهكم إلى أن الجندر، بمعناه الهرمسي، والجنس بالاستخدام المتعارف عليه للمصطلح، ليسا الشيء نفسه.

كلمة "جندر" مشتقة من جذر لاتيني يعني "يُنجب، يُنجب، يُولّد، يُنشئ، يُنتج". بتأملٍ سريع، سيتضح لكم أن للكلمة معنىً أوسع وأعم بكثير من مصطلح "الجنس"، الذي يُشير إلى الفروق الجسدية بين الكائنات الحية الذكرية والأنثوية. الجنس ليس سوى مظهر من مظاهر الجندر على مستوى مُعين من المستوى المادي الأعظم - مستوى الحياة العضوية. نودّ أن نُرسخ هذا التمييز في أذهانكم، لأن بعض الكُتّاب، ممن اكتسبوا لمحةً من الفلسفة الهرمسية، سعوا إلى ربط هذا المبدأ الهرمسي السابع بنظرياتٍ وتعاليمٍ جامحة وخيالية، وغالبًا ما تكون مُستهجنة، تتعلق بالجنس. وظيفة الجندر هي الخلق والإنتاج والتوليد، وما إلى ذلك، وتتجلى مظاهره في كل مستوى من الظواهر. من الصعب نوعًا ما إنتاج هناك أدلة علمية على ذلك، لأن العلم لم يعترف بعد بهذا المبدأ على أنه تطبيق عالمي. ومع ذلك، لا تزال بعض الأدلة تظهر من مصادر علمية. أولًا، نجد مظهرًا واضحًا لمبدأ النوع بين الجسيمات أو الأيونات أو الإلكترونات، التي تُشكل أساس المادة كما يعرفها العلم الآن، والتي تُشكل الذرة، بتكوينها تركيبات معينة، والتي كانت تُعتبر حتى وقت قريب نهائية وغير قابلة للتجزئة. أحدث ما توصل إليه العلم هو أن الذرة تتكون من عدد كبير من الجسيمات أو الإلكترونات أو الأيونات (وهي أسماء مختلفة تُطلقها جهات مختلفة) تدور حول بعضها البعض وتهتز بدرجة وكثافة عاليتين. لكن يُقال إن تكوين الذرة يعود في الواقع إلى تجمع جسيمات سالبة حول جسيم موجب - إذ يبدو أن الجسيمات الموجبة تُمارس تأثيرًا معينًا على الجسيمات السالبة، مما يدفع الأخيرة إلى تكوين تركيبات معينة، وبالتالي "تخلق" أو "تولد" ذرة. وهذا يتماشى مع أقدم التعاليم الهرمسية، التي لطالما ربطت مبدأ المذكر بالجسيم "الموجب"، والمؤنث بالأقطاب "السالبة" للكهرباء (كما يُسمى).

الآن، كلمة واحدة بخصوص هذا التعريف. لقد كوّن الرأي العام انطباعًا خاطئًا تمامًا بشأن خصائص ما يُسمى بالقطب "السالب" للمادة المكهربة أو الممغنطة. يُطبّق العلم مصطلحي "موجب" و"سالب" على هذه الظاهرة بشكل خاطئ تمامًا. فكلمة "موجب" تعني شيئًا حقيقيًا وقويًا، مقارنةً بكلمة "سالب" التي تعني عدم الواقعية أو الضعف. لا شيء أبعد عن الحقائق

الحقيقية للظواهر الكهربائية. ما يُسمى بالقطب السالب للبطارية هو في الواقع القطب الذي يتم من خلاله توليد أو إنتاج أشكال وطاقات جديدة. لا يوجد شيء "سلبي" فيه. يستخدم أفضل العلماء الآن كلمة "كاثود" بدلًا من "سالب"، وهي كلمة مشتقة من جذر يوناني يعني "الانحدار؛ مسار التولد، إلخ". من قطب الكاثود تنبثق أسراب الإلكترونات أو الجسيمات؛ ومن القطب نفسه تنبثق تلك "الأشعة" الرائعة التي أحدثت ثورة في المفاهيم العلمية خلال العقد الماضي. قطب الكاثود هو أساس كل الظواهر الغريبة التي أبطلت الكتب المدرسية القديمة، وتسببت في تهميش العديد من النظريات المقبولة منذ زمن طويل في كومة التكهنات العلمية.

الكاثود، أو القطب السالب، هو المبدأ الأم للظواهر الكهربائية، وأرقى أشكال المادة التي عرفها العلم حتى الآن. كما ترى، لدينا ما يبرر رفضنا استخدام مصطلح "سلبي" في بحثنا عن الموضوع، وإصرارنا على استبدال المصطلح القديم بكلمة "أنثوي". وتؤكد وقائع القضية صحة ذلك، دون مراعاة التعاليم الهرمسية. ولذلك سنستخدم كلمة "أنثوي" بدلًا من "سلبي" عند الحديث عن قطب النشاط هذا.

77

تشير أحدث التعاليم العلمية إلى أن الجسيمات الإبداعية أو الإلكترونات أنثوية (يقول العلم إنها "مكونة من كهرباء سالبة" - ونحن نقول إنها مكونة من طاقة أنثوية). ينفصل الجسيم المؤنث عن الجسيم المذكر، أو بالأحرى ينفصل عنه، ويبدأ مسارًا جديدًا. يسعى بنشاط إلى الاتحاد مع الجسيم المذكر، مدفوعًا بذلك بدافع طبيعي لخلق أشكال جديدة من المادة أو الطاقة.

78 يذهب أحد الكُتّاب إلى حدّ استخدام مصطلح "يسعى فورًا، بمحض إرادته، إلى الاتحاد"، إلخ. يُشكّل هذا الانفصال والاتحاد أساس الجزء الأكبر من أنشطة العالم الكيميائي. عندما يتحد جسيم أنثوي مع جسيم مذكر، تبدأ عملية مُعيّنة. تهتز الجسيمات المؤنثة بسرعة تحت تأثير الطاقة المذكرة، وتدور بسرعة حول الأخيرة. والنتيجة هي ولادة ذرة جديدة. تتكون هذه الذرة الجديدة في الواقع من اتحاد إلكترونات أو جسيمات المذكر والمؤنث، ولكن عندما يتمّ الاتحاد، تُصبح الذرة شيئًا مُنفصلًا، له خصائص مُعيّنة، ولكنه لم يعد يُظهر خاصية الكهرباء الحرة. تُسمّى عملية انفصال أو انفصال الإلكترونات المؤنثة "التأين". تُعدّ هذه الإلكترونات، أو الجسيمات، أنشط العناصر في مجال الطبيعة. من اتحاداتها، أو تركيباتها، تظهر ظواهر متنوعة كالضوء، والحرارة، والكهرباء، والمغناطيسية، والتجاذب، والتنافر، والتقارب الكيميائي، والعكس، وظواهر مماثلة. وكل هذا ينشأ من عمل مبدأ النوع على مستوى الطاقة.

يبدو أن دور المبدأ المذكر يتمثل في توجيه طاقة كامنة معينة نحو المبدأ المؤنث، وبالتالي بدء العمليات الإبداعية. لكن المبدأ المؤنث هو الذي يقوم دائمًا بالعمل الإبداعي النشط - وهذا هو الحال في جميع المستويات. ومع ذلك، فإن كل مبدأ غير قادر على توليد طاقة فعالة بدونه.

إلا بمساعدة الآخر. في بعض أشكال الحياة، يجتمع المبدأان في كائن حي واحد. في هذا الصدد، كل شيء في العالم العضوي يُظهر كلا الجنسين - فهناك دائمًا المذكر في الشكل الأنثوي، والمؤنث في الشكل الأنثوي. تتضمن التعاليم الهرمسية الكثير فيما يتعلق بعمل مبدأي الجنس في إنتاج وتجلي أشكال مختلفة من الطاقة، وما إلى ذلك، لكننا لا نرى من المناسب الخوض في التفاصيل بشأن ذلك الآن، لأننا لا نستطيع دعم ذلك بأدلة علمية، لأن العلم لم يتقدم بعد. لكن المثال الذي قدمناه لك عن ظاهرة الإلكترونات أو الجسيمات سيُظهر لك أن العلم يسير على الطريق الصحيح، وسيعطيك أيضًا فكرة عامة عن المبادئ الأساسية. أعلن بعض الباحثين العلميين البارزين اعتقادهم بأنه في تكوين البلورات، وُجد شيءٌ ما يُقابل "النشاط الجنسي"، وهو ما يُمثل دليلاً آخر على اتجاه رياح العلم. وسيحمل كل عام حقائق جديدة تُؤكد صحة المبدأ الهرمسي للجنس. سيُكتشف أن الجنس في حالة عمل وتجلي مستمرين في مجال المادة غير العضوية، وفي مجال الطاقة أو القوة. تُعتبر الكهرباء الآن عمومًا "الشيء" الذي يبدو أن جميع أشكال الطاقة الأخرى تذوب فيه أو تتحلل فيه. وتُعتبر "النظرية الكهربائية للكون" أحدث المذاهب العلمية، وتزداد شعبيتها وقبولها بشكل سريع. وبالتالي، إذا استطعنا اكتشاف دليل واضح لا لبس فيه على وجود الجنس وأنشطته في ظاهرة الكهرباء، حتى في أصل ومصدر مظاهرها، فإننا مُبررون في مطالبتكم بالاعتقاد بأن العلم قد قدّم أخيرًا أدلة على وجود ذلك المبدأ الهرمسي العظيم، مبدأ الجنس، في جميع الظواهر الكونية.

ليس من الضروري أن تُشغلوا وقتكم بالظواهر المعروفة مثل "التجاذب والتنافر" بين الذرات؛ والتقارب الكيميائي؛ و"الحب والكراهية" بين الجسيمات الذرية؛ والتجاذب أو التماسك بين جزيئات المادة. هذه الحقائق معروفة جيدًا ولا تحتاج إلى شرح مُوسّع منّا. ولكن، هل فكرتم يومًا أن كل هذه الأشياء هي تجليات لمبدأ الجنس؟ ألا ترون أن هذه الظاهرة "على أربع" مع ظاهرة الجسيمات أو الإلكترونات؟ بل أكثر من ذلك، ألا ترى معقولية التعاليم الهرمسية التي تُؤكد أن قانون الجاذبية نفسه - ذلك الجذب الغريب الذي بسببه تميل جميع جسيمات وأجسام المادة في الكون نحو بعضها البعض - ليس سوى مظهر آخر لمبدأ النوع، الذي يعمل في اتجاه جذب الطاقات المذكرة إلى الأنثوية، والعكس صحيح؟ لا يمكننا أن نُقدم لك دليلاً علميًا على ذلك في الوقت الحالي - ولكن افحص الظواهر في ضوء التعاليم الهرمسية حول هذا الموضوع، وانظر إن كانت لديك فرضية عملية أفضل من أي فرضية تقدمها العلوم الفيزيائية. اختبر جميع الظواهر الفيزيائية، وستدرك أن مبدأ النوع قائم دائمًا على الأدلة. لننتقل الآن إلى دراسة عمل المبدأ على المستوى العقلي. هناك العديد من السمات المثيرة للاهتمام التي تنتظر الفحص.

الفصل الرابع عشر: النوع العقلي

يُذهل دارسو علم النفس الذين اتبعوا التوجه الفكري الحديث في الظواهر العقلية من استمرار فكرة ازدواجية العقل التي تجلّت بقوة خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة الماضية، والتي أدّت إلى ظهور عدد من النظريات المعقولة حول طبيعة وتكوين هذين "العقلين". اكتسب الراحل تومسون جيه. هدسون شعبية كبيرة عام ١٨٩٣ بطرحه نظريته الشهيرة عن "العقلين الموضوعي والذاتي" التي اعتقد بوجودها في كل فرد. وقد حظي كُتّاب آخرون باهتمام مماثل تقريبًا من خلال النظريات المتعلقة بـ "العقل الواعي واللاواعي"؛ و"العقول الإرادية واللاإرادية"؛ و"العقلين الفاعل والمفعول"، إلخ.

تختلف نظريات الكُتّاب المختلفين عن بعضها البعض، ولكن يبقى المبدأ الأساسي المتمثل في "ازدواجية العقل."

يُغرى طالب الفلسفة الهرمسية بالابتسام عندما يقرأ ويسمع عن هذه "النظريات الجديدة" العديدة المتعلقة بثنائية العقل، حيث تتمسك كل مدرسة بعناد بنظرياتها المفضلة، وتدعي كل منها "اكتشاف الحقيقة". يقلب الطالب صفحات تاريخ العلوم الخفية، ويجد في بدايات التعاليم الخفية إشارات إلى العقيدة الهرمسية القديمة حول مبدأ الجنس على المستوى العقلي - تجليات الجنس العقلي. وبالتعمق أكثر، يجد أن الفلسفة القديمة قد أدركت ظاهرة "ازدواجية العقل"، وفسّرتها بنظرية الجنس العقلي. يمكن شرح فكرة الجنس العقلي هذه ببضع كلمات للطلاب المطلعين على النظريات الحديثة التي أشرنا إليها للتو. يقابل مبدأ العقل المذكر ما يسمى بالعقل الموضوعي؛ العقل الواعي؛ العقل الإرادي؛ العقل الفعال، إلخ. والمبدأ الأنثوي للعقل يتوافق مع ما يُسمى بالعقل الذاتي، والعقل الباطن، والعقل اللاإرادي، والعقل المنفعل، إلخ. وبالطبع، لا تتفق التعاليم الهرمسية مع النظريات الحديثة العديدة المتعلقة بطبيعة مرحلتي العقل، ولا تُقرّ بالعديد من الحقائق المُدّعاة لكلا الجانبين - فبعض هذه النظريات والادعاءات بعيدة المنال وغير قادرة على الصمود أمام اختبار التجربة والبرهان. ونشير إلى مراحل التوافق لمجرد مساعدة الطالب على استيعاب معارفه المكتسبة سابقًا مع تعاليم الفلسفة الهرمسية. سيلاحظ طلاب هدسون العبارة الواردة في بداية الفصل الثاني من كتابه "قانون الظواهر النفسية"، والتي مفادها أن: "المصطلحات الصوفية للفلاسفة الهرمسيين تكشف عن نفس الفكرة العامة"، أي ثنائية العقل. لو أن الدكتور هدسون بذل الوقت والجهد لفهم بعض "المصطلحات الصوفية للفلسفة الهرمسية"، لكان قد ألقى ضوءًا واسعًا على موضوع "العقل المزدوج"، ولكن ربما لم يُكتب عمله الأكثر إثارة للاهتمام حينها. لننظر الآن في التعاليم الهرمسية المتعلقة بالجنس العقلي. يُقدم المعلمون الهرمسيون توجيهاتهم في هذا الموضوع من خلال مطالبة طلابهم بفحص تقرير وعيهم بشأن ذواتهم. يُطلب من الطلاب أن يُركزوا انتباههم على الذات الكامنة في كل منهم. يُرشد كل طالب إلى أن وعيه يُعطيه أولًا تقريرًا عن وجود ذاته - التقرير هو "أنا

هو". يبدو هذا للوهلة الأولى وكأنه الكلمات الأخيرة من الوعي، لكن القليل من الفحص يكشف عن حقيقة أن هذا "أنا هو" قد يكون منفصلًا أو منقسمًا إلى جزأين أو جانبين متميزين، يعملان معًا ومترابطين، ومع ذلك، قد يكونان منفصلين في الوعي. بينما يبدو للوهلة الأولى أن هناك "أنا" فقط، يكشف فحصٌ أكثر دقةً ودقةً عن وجود "أنا" و"أنا". يختلف هذان التوأمان العقليان في خصائصهما وطبيعتهما، ودراسة طبيعتهما والظواهر الناتجة عنهما ستُلقي ضوءًا كبيرًا على العديد من مشاكل التأثير العقلي. لنبدأ بدراسة "الأنا"، التي عادةً ما يخطئ الطالب في اعتبارها "الأنا"، إلى أن يتعمق البحث قليلًا في أعماق الوعي. يفكر الإنسان في ذاته (في جانبها من "الأنا") على أنها مكونة من مشاعر وأذواق وتفضيلات ونفورات وعادات وخصائص وسمات معينة، إلخ، تُشكل جميعها شخصيته، أو "الذات" المعروفة له وللآخرين. إنه يعلم أن هذه المشاعر والعواطف تتغير؛ تولد وتزول؛ تخضع لمبدأ الإيقاع، ومبدأ القطبية، اللذين ينقلانه من طرف إلى آخر في الشعور. كما أنه يعتقد أن "الأنا" هي معرفة أكيدة

82

مُتجمعة في ذهنه، وبالتالي تُشكل جزءًا منه. هذه هي "الأنا" للإنسان.

لكننا تسرعنا كثيرًا. يمكن القول إن "الأنا" لدى كثير من الناس تتكون إلى حد كبير من وعيهم بالجسد وشهواتهم الجسدية، إلخ. وعيهم لأنهم مرتبطون ارتباطًا وثيقًا بطبيعتهم الجسدية، فهم عمليًا "يعيشون فيها". بل إن بعض الرجال يعتبرون ملابسهم الشخصية جزءًا من "أناهم"، بل يبدو أنهم يعتبرونها جزءًا منهم. وقد قال أحد الكُتّاب مازحًا: "الرجال ثلاثة أجزاء: الروح والجسد والملابس". هؤلاء "الواعون بالملابس" سيفقدون شخصيتهم إذا جردهم المتوحشون من ملابسهم في حادثة غرق سفينة. لكن حتى الكثيرين ممن ليسوا مرتبطين ارتباطًا وثيقًا بفكرة الملابس الشخصية يتمسكون بشدة بوعيهم بأن أجسادهم هي "أناهم". لا يمكنهم تصور ذات مستقلة عن الجسد. يبدو لهم أن عقولهم "شيء ينتمي" إلى أجسادهم - وهو كذلك بالفعل في كثير من الحالات. لكن مع ارتقاء الإنسان في سلم الوعي، يصبح قادرًا على فصل "أناه" عن فكرته عن الجسد، ويستطيع أن يفكر في جسده على أنه "ينتمي" إلى الجانب العقلي منه. ولكن حتى في هذه الحالة، يميل إلى تعريف "أناه" كليًا بالحالات العقلية والمشاعر، وما إلى ذلك، التي يشعر بوجودها بداخله. يميل إلى اعتبار هذه الحالات الداخلية متطابقة معه، بدلًا من كونها مجرد "أشياء" ناتجة عن جزء من عقله، وموجودة بداخله - منه وفيه، ولكنها مع ذلك ليست "نفسه". يرى أنه يستطيع تغيير هذه الحالات الداخلية للمشاعر بكل جهد إرادي، وأنه قد يُنتج شعورًا أو حالة ذات طبيعة معاكسة تمامًا، بنفس الطريقة، ومع ذلك يبقى "أناه" نفسه موجودًا. وهكذا، بعد فترة، يتمكن من تنحية هذه الحالات الذهنية المختلفة، والعواطف، والمشاعر، والعادات، والصفات، والخصائص، وغيرها من الممتلكات الذهنية الشخصية جانبًا - ويستطيع وضعها جانبًا في مجموعة "غير الأنا" من الفضوليات والأعباء، بالإضافة إلى

الممتلكات القيّمة. يتطلب هذا تركيزًا ذهنيًا كبيرًا وقوة تحليل ذهني من جانب الطالب. ومع ذلك، تظل المهمة ممكنة للطالب المتقدم، وحتى من هم أقل تقدمًا يستطيعون أن يتصوروا، في خيالهم، كيف يمكن تنفيذ هذه العملية.

83

بعد إتمام عملية التنحية هذه، سيجد الطالب نفسه يمتلك بوعي "ذاتًا" يمكن اعتبارها في جانبيها الثنائيين "الأنا" و"الأنا". سيشعر الطالب بأن "الأنا" شيء ذهني يمكن من خلاله إنتاج الأفكار، والانفعالات، والمشاعر، والحالات الذهنية الأخرى. يمكن اعتباره "الرحم العقلي"، كما سماه القدماء، قادرًا على توليد ذرية عقلية. يُرسل إلى الوعي كـ"أنا" بقدرات كامنة على الإبداع وتوليد ذرية عقلية من مختلف الأنواع. يُنظر إلى قدراته الإبداعية على أنها هائلة. ومع ذلك، يبدو أنه يدرك أنه يجب أن يتلقى شكلًا من أشكال الطاقة إما من رفيقه "أنا"، أو من "أنا" أخرى، حتى يتمكن من خلق إبداعاته العقلية. هذا الوعي يجلب معه إدراكًا لقدرة هائلة على العمل العقلي والإبداع. لكن سرعان ما يكتشف الطالب أن هذا ليس كل ما يجده في وعيه الداخلي. يجد أن هناك شيئًا عقليًا قادرًا على إرادة أن "أنا" تعمل وفق مسارات إبداعية معينة، وقادر أيضًا على الوقوف جانبًا ومشاهدة الخلق العقلي. يُعلّم هذا الجزء من نفسه أن يُسميه "أنا". إنه قادر على الراحة في وعيه بإرادته. لا يجد وعيًا بالقدرة على التوليد والإبداع النشط، بمعنى العملية التدريجية المصاحبة للعمليات العقلية، بل إحساسًا ووعيًا بالقدرة على إسقاط طاقة من "الأنا" إلى "الأنا" - وهي عملية "إرادة" لبدء الخلق العقلي واستمراره.

كما يجد أن "الأنا" قادرة على الوقوف جانبًا ومشاهدة عمليات خلق "الأنا" وتوليدها العقلي. هناك هذا الجانب المزدوج في عقل كل شخص. "الأنا" يمثل المبدأ الذكوري للجنس العقلي - "الأنا" يمثل المبدأ الأنثوي. "الأنا" يمثل جانب الوجود؛ "الأنا" يمثل جانب الصيرورة. ستلاحظ أن مبدأ المراسلات يعمل على هذا المستوى تمامًا كما يعمل على المستوى الأكبر الذي يُجرى عليه خلق الأكوان. الاثنان متشابهان في النوع، وإن كانا مختلفين تمامًا في الدرجة. "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل؛ كما في الأسفل، كذلك في الأعلى". هذه الجوانب العقلية - المبادئ الذكورية والأنثوية - "الأنا" و"الأنا" - عند النظر إليها في سياق الظواهر العقلية والنفسية المعروفة، تُعطي المفتاح الرئيسي لهذه المجالات الغامضة من العمليات العقلية والتجليات. يُعطي مبدأ النوع العقلي الحقيقة الكامنة وراء كامل مجال ظواهر التأثير العقلي، إلخ.

يميل المبدأ الأنثوي دائمًا إلى تلقي الانطباعات، بينما يتجه المبدأ الذكوري دائمًا إلى العطاء أو الإظهار أو التعبير. يمتلك المبدأ الأنثوي مجال عمل أكثر تنوعًا بكثير من المبدأ الذكوري. يُجري المبدأ الأنثوي عملية توليد أفكار ومفاهيم وخواطر جديدة، بما في ذلك عمل الخيال.

يكتفي المبدأ المذكر بعمل "الإرادة" في مراحلها المختلفة. ومع ذلك، فبدون المساعدة الفاعلة من إرادة المبدأ المذكر، يميل المبدأ المؤنث إلى الاكتفاء بتوليد صور ذهنية ناتجة عن انطباعات خارجية، بدلاً من إنتاج إبداعات ذهنية أصلية.

الأشخاص القادرون على إيلاء اهتمام وفكر متواصلين لموضوع ما، يستخدمون بنشاط كلا المبدأين الذهنيين - المبدأ المؤنث في عملية التوليد الذهني، والإرادة المذكرة في تحفيز وتنشيط الجانب الإبداعي من العقل. لا يستخدم غالبية الأشخاص المبدأ المذكر إلا قليلاً، ويكتفون بالعيش وفقًا للأفكار والخواطر التي غُرست في "الأنا" من "أنا" عقول أخرى. لكن ليس هدفنا الخوض في هذه المرحلة من الموضوع، والتي يمكن دراستها من أي كتاب دراسي جيد في علم النفس، بالمفتاح الذي قدمناه لكم بشأن النوع العقلي.

يدرك طالب الظواهر النفسية الظواهر العجيبة المصنفة تحت عنوان التخاطر، ونقل الأفكار، والتأثير العقلي، والإيحاء، والتنويم المغناطيسي، إلخ. وقد سعى الكثيرون إلى تفسير هذه المراحل المتنوعة من الظواهر في ظل نظريات مُعلّمي "العقل المزدوج". وهم مُحقّون إلى حد ما، إذ من الواضح أن هناك تجلّيًا لمرحلتين مُتميزتين من النشاط العقلي. ولكن إذا نظر هؤلاء الطلاب إلى هذه "العقول المزدوجة" في ضوء التعاليم الهرمسية المتعلقة بالاهتزازات والنوع العقلي، فسيجدون أن المفتاح الذي طال انتظاره قد أصبح في متناول اليد. في ظاهرة التخاطر، يُرى كيف تُسقط الطاقة الاهتزازية للمبدأ المذكر على المبدأ المؤنث لشخص آخر، فيأخذ الأخير بذرة الفكرة ويسمح لها بالنمو حتى تصل إلى مرحلة النضج. وبنفس الطريقة يعمل الإيحاء والتنويم المغناطيسي. يوجه المبدأ المذكر للشخص الذي يقدم الاقتراحات تيارًا من الطاقة الاهتزازية أو قوة الإرادة نحو المبدأ المؤنث للشخص الآخر، فيقبلها الأخير، فيصبح ملكًا له ويتصرف ويفكر وفقًا لذلك. وهكذا تنمو الفكرة المستقرة في ذهن شخص آخر وتتطور، وتُعتبر مع مرور الوقت ذريةً عقليةً شرعيةً للفرد، بينما هي في الواقع كبيضة الوقواق التي وُضعت في عش العصافير، حيث تُدمر النسل الشرعي وتستقر في بيتها. الطريقة الطبيعية هي أن تتناغم مبادئ المذكر والمؤنث في عقل الشخص وتعمل بانسجام مع بعضها البعض، ولكن، للأسف، يكون المبدأ المذكر لدى الشخص العادي كسولاً جدًا عن العمل - فإظهار قوة الإرادة ضعيف جدًا - والنتيجة هي أن هؤلاء الأشخاص محكومون بشكل شبه كامل بعقول وإرادات الآخرين، الذين يسمحون لهم بالتفكير والإرادة نيابةً عنهم. كم من الأفكار أو الأفعال الأصيلة يقوم بها الشخص العادي؟ أليست غالبية الأشخاص مجرد ظلال وأصداء لآخرين ذوي إرادات أو عقول أقوى منهم؟ المشكلة هي أن الشخص العادي يسكن بشكل شبه كامل في وعيه "الأنا" ولا يدرك أنه يمتلك شيئًا يُسمى "أنا". إنه مستقطب في مبدأ عقله الأنثوي، والمبدأ المذكر، الذي تسكنه الإرادة، يُسمح له بالبقاء خاملًا وغير مستخدم. يُظهر الرجال والنساء الأقوياء في العالم دائمًا مبدأ الإرادة الذكوري، وتعتمد قوتهم بشكل

جوهري على هذه الحقيقة. فبدلاً من العيش بناءً على الانطباعات التي يتركها الآخرون في عقولهم، يسيطرون على عقولهم بإرادتهم، ويحصلون على الصور الذهنية التي يرغبون فيها، بل ويسيطرون على عقول الآخرين أيضًا، بنفس الطريقة. انظر إلى الأقوياء، كيف ينجحون في غرس أفكارهم في عقول الجماهير، مما يدفعهم إلى التفكير وفقًا لرغبات وإرادات الأفراد الأقوياء. لهذا السبب، تُشبه الجماهير مخلوقات الخراف، لا تُبدع فكرة خاصة بها، ولا تستخدم قواها العقلية الخاصة.

86

يمكن ملاحظة تجليات النوع العقلي في كل مكان حولنا في الحياة اليومية. الأشخاص الجذابون هم أولئك القادرون على استخدام مبدأ الذكورة في فرض أفكارهم على الآخرين. إن الممثل الذي يُبكي الناس أو يُبكيهم كما يشاء، يُطبّق هذا المبدأ. وكذلك يفعل الخطيب الناجح، ورجل الدولة، والواعظ، والكاتب، وغيرهم ممن هم محط أنظار الجمهور. إن التأثير المميز الذي يُمارسه بعض الناس على الآخرين يُعزى إلى تجلّي النوع العقلي، وفقًا للخطوط الاهتزازية المذكورة أعلاه. في هذا المبدأ يكمن سر الجاذبية الشخصية، والتأثير الشخصي، والفتنة، وما إلى ذلك، بالإضافة إلى الظواهر التي تُصنّف عمومًا تحت اسم التنويم المغناطيسي.

سيكتشف الطالب الذي أطلع نفسه على الظواهر التي تُوصف عمومًا بأنها "نفسية" أن تلعب القوة التي أطلق عليها العلم اسم "الإيحاء" دورًا هامًا في الظاهرة المذكورة، ويُقصد بها العملية أو الطريقة التي تُنقل بها فكرة إلى عقل شخص آخر أو تُطبع فيه، مما يدفع العقل الثاني إلى التصرف وفقًا لها. يُعد الفهم الصحيح للإيحاء ضروريًا لفهم الظواهر النفسية المتنوعة التي يُشكلها الإيحاء بذكاء. ولكن، من الضروري أيضًا لدارس الإيحاء معرفة الاهتزاز والجنس العقلي. فمبدأ الإيحاء برمته يعتمد على مبدأ الجنس العقلي والاهتزاز. ومن المعتاد أن يُوضح مؤلفو الإيحاء ومعلموه أن العقل "الموضوعي أو الإرادي" هو الذي يُحدث الانطباع العقلي، أو الإيحاء، في العقل "الذاتي أو اللاإرادي". لكنهم لا يصفون العملية ولا يقدمون لنا أي تشبيه في الطبيعة يُسهّل علينا فهم الفكرة. ولكن إذا فكرت في الأمر في ضوء التعاليم الهرمسية، فستتمكن من رؤية أن تنشيط المبدأ الأنثوي بالطاقة الاهتزازية للمبدأ الذكوري يتوافق مع قوانين الطبيعة الكونية، وأن العالم الطبيعي يوفر تشبيهات لا حصر لها يمكن من خلالها فهم المبدأ. في الواقع، تُظهر التعاليم الهرمسية أن خلق الكون نفسه يتبع القانون نفسه، وأنه في جميع المظاهر الإبداعية، على المستويات الروحية والعقلية والجسدية، يوجد دائمًا مبدأ النوع هذا - هذا التجلي للمبدأين الذكوري والأنوثة. "كما في الأعلى، كذلك في الأسفل؛ كما في الأسفل، كذلك في الأعلى". بل أكثر من ذلك، عندما يُدرك مبدأ النوع العقلي ويُفهم، تُصبح ظواهر علم النفس المتنوعة قابلةً للتصنيف والدراسة بذكاء، بدلاً من أن تكون في ظلمةٍ مُطبقَة.

يُطبّق هذا المبدأ عملياً، لأنه مبنيٌّ على قوانين الحياة الكونية الثابتة.

لن نخوض في نقاشٍ مُطوّلٍ حول، أو وصف، ظواهر التأثير العقلي أو النشاط النفسي المتنوعة. هناك العديد من الكتب، وكثيرٌ منها جيدٌ جداً، كُتبت ونُشرت حول هذا الموضوع في السنوات الأخيرة. الحقائق الرئيسية الواردة في هذه الكتب المختلفة صحيحة، على الرغم من أن الكُتّاب المختلفين حاولوا شرح هذه الظواهر من خلال نظرياتهم المُفضّلة. يُمكن للطالب أن يُلمّ بهذه الأمور، وباستخدام نظرية النوع العقلي، سيتمكن من إخراج النظام من فوضى النظريات والتعاليم المُتضاربة، وقد يُصبح، علاوةً على ذلك، مُلِمًّا بالموضوع بسهولة إذا شاء ذلك. ليس الغرض من هذا العمل تقديم وصف مُوسّع للظواهر النفسية، بل منح الطالب مفتاحًا رئيسيًا يُمكنه من خلاله فتح العديد من الأبواب المؤدية إلى أجزاء معبد المعرفة التي قد يرغب في استكشافها. نشعر أنه في هذا التأمل لتعاليم الكيباليون، قد يجد المرء شرحًا من شأنه أن يُزيل العديد من الصعوبات المُحيّرة - مفتاحًا سيفتح العديد من الأبواب. ما فائدة الخوض في تفاصيل جميع السمات العديدة للظواهر النفسية والعلوم العقلية، إذا وضعنا بين يدي الطالب الوسائل التي تُمكّنه من الإلمام التام بأي مرحلة من مراحل الموضوع قد تُثير اهتمامه.
بمساعدة الكيباليون، يُمكن للمرء أن يُتصفح أي مكتبة غامضة من جديد، حيث يُنير النور القديم من مصر العديد من الصفحات المظلمة والموضوعات الغامضة. هذا هو الغرض من هذا الكتاب. نحن لا نأتي لشرح فلسفة جديدة، بل نُقدّم الخطوط العريضة لتعاليم عالمية عظيمة، تُوضّح تعاليم الآخرين، وتُشكّل مُصالحًا عظيمًا بين النظريات المُختلفة والمذاهب المُتعارضة.

88

الفصل 15: المُسلّمات الهرمسية

"إنّ امتلاك المعرفة، ما لم يُصاحبه تجلٍ وتعبيرٌ عملي، يُشبه اكتناز المعادن الثمينة - وهو أمرٌ تافهٌ وسخيف. المعرفة، كالثروة، مُعدّةٌ للاستخدام. قانون الاستخدام عالمي، ومن يُخالفه يُعاني بسبب صراعه مع قوى الطبيعة- ".

الكيباليون.

مع أنّ التعاليم الهرمسية حُفظت دائمًا في أذهان مُلّاكها المُحظوظين، لأسبابٍ سبق أن ذكرناها، إلا أنها لم تُقصد قطّ أن تُخزّن وتُخفى.

يُسهب في التعاليم حول قانون الاستخدام، كما ترون بالرجوع إلى الاقتباس أعلاه من كتاب "الكيباليون"، الذي ينص عليه بقوة.

المعرفة دون استخدام وتعبير لا قيمة لها، لا تُجدي نفعًا لصاحبها ولا للبشرية. احذروا البخل الذهني، وحوّلوا ما تعلمتموه إلى عمل. ادرسوا البديهيات والأقوال المأثورة، ولكن مارسوها أيضًا.

نقدم أدناه بعضًا من أهم البديهيات الهرمسية، من كتاب "الكيباليون"، مع إضافة بعض التعليقات على كل منها. اجعلوها ملككم، ومارسوها واستخدموها، لأنها ليست ملككم حقًا إلا بعد استخدامها.

مزاجك أو حالتك العقلية - غيّر اهتزازك. - الكيباليون.

يمكن للمرء أن يغير اهتزازاته العقلية بجهد إرادته، وذلك بتوجيه انتباهه عمدًا إلى حالة أكثر استحسانًا. الإرادة توجه الانتباه، والانتباه يغير الاهتزاز. طوّر فن الانتباه، من خلال الإرادة، وستكتشف سرّ إتقان المزاج والحالات العقلية.

"لتحطيم معدل اهتزاز عقلي غير مرغوب فيه، طبّق مبدأ القطبية وركز على القطب المعاكس لما ترغب في قمعه. "اقضِ على غير المرغوب فيه بتغيير قطبيته." - الكيباليون.

89

هذه إحدى أهم الصيغ الهرمسية. وهي مبنية على مبادئ علمية صحيحة. لقد أوضحنا لكم أن الحالة العقلية ونقيضها ما هما إلا قطبان لشيء واحد، وأنه من خلال التحويل العقلي يمكن عكس القطبية. هذا المبدأ معروف لعلماء النفس المعاصرين، الذين يطبقونه على التخلص من العادات غير المرغوب فيها من خلال توجيه طلابهم للتركيز على الصفة المعاكسة. إذا كنتَ مسكونًا بالخوف، فلا تُضيع وقتك في محاولة "القضاء" على الخوف، بل طوّر صفة الشجاعة،

وسيختفي الخوف. وقد عبّر بعض الكُتّاب عن هذه الفكرة بقوة باستخدام مثال الغرفة المظلمة. ليس عليكَ إزالة الظلام أو كنسه، ولكن بمجرد فتح المصاريع والسماح للضوء بالدخول، يختفي الظلام. للقضاء على صفة سلبية، ركّز على القطب الموجب من نفس النوعية، وستتغير الاهتزازات تدريجيًا من السالب إلى الموجب، حتى تصبح في النهاية مستقطبًا نحو القطب الموجب بدلًا من السالب. والعكس صحيح أيضًا، كما اكتشف الكثيرون للأسف، عندما سمحوا لأنفسهم بالتذبذب باستمرار نحو القطب السالب للأشياء. بتغيير قطبيتك، يمكنك التحكم في مزاجك، وتغيير حالتك العقلية، وإعادة تشكيل مزاجك، وبناء شخصيتك. يعود جزء كبير من الإتقان العقلي لدى علماء الهرمسية المتقدمين إلى هذا التطبيق للقطبية، وهو أحد الجوانب المهمة للتحول العقلي. تذكر البديهية الهرمسية (المقتبسة سابقًا)، التي تقول: "يمكن تحويل العقل (وكذلك المعادن والعناصر) من حالة إلى حالة؛ ومن درجة إلى درجة، ومن حالة إلى حالة؛ ومن قطب إلى قطب؛ من اهتزاز إلى اهتزاز." - الكيباليون.

إن إتقان الاستقطاب هو إتقان المبادئ الأساسية للتحويل العقلي أو الخيمياء العقلية، لأنه ما لم يكتسب المرء فن تغيير قطبيته، فلن يتمكن من التأثير على بيئته. إن فهم هذا المبدأ سيمكن المرء من تغيير قطبيته، وكذلك قطبية الآخرين، إذا كرّس الوقت والعناية والدراسة والممارسة اللازمة لإتقان هذا الفن. المبدأ صحيح، لكن النتائج التي يتم الحصول عليها تعتمد على صبر الطالب الدؤوب وممارسته.

"يمكن تحييد الإيقاع بتطبيق فن الاستقطاب." - الكيباليون.

90

كما شرحنا في الفصول السابقة، يعتقد الهرمسيون أن مبدأ الإيقاع يتجلى على المستوى العقلي وكذلك على المستوى المادي، وأن التعاقب المحير للحالات المزاجية والمشاعر والعواطف والحالات العقلية الأخرى، يعود إلى تأرجح البندول الذهني للأمام والخلف، والذي ينقلنا من طرف شعوري إلى آخر. يُعلّم الهرمسيون أيضًا أن قانون التحييد يُمكّن المرء، إلى حد كبير، من التغلب على آلية الإيقاع في الوعي.

كما شرحنا، هناك مستوى أعلى من الوعي، بالإضافة إلى المستوى الأدنى العادي، والمعلم، بارتفاعه ذهنيًا إلى المستوى الأعلى، يُسبب تأرجح البندول الذهني في المستوى الأدنى، وهو، وهو يُفكّر في مستواه الأعلى، يهرب من وعي التأرجح للخلف. يتم ذلك عن طريق الاستقطاب على الذات العليا، وبالتالي رفع الاهتزازات الذهنية للأنا فوق اهتزازات المستوى العادي للوعي. إنه أشبه بالارتفاع فوق شيء والسماح له بالمرور من تحتك. يُستقطب الهرمسي المتقدم نفسه عند القطب الإيجابي لوجوده - قطب "أنا" بدلاً من قطب الشخصية، وعن طريق "رفض" و"إنكار" آلية... الإيقاع، يرفع نفسه فوق مستوى وعيه، وثباتًا على بيان وجوده،

يسمح للبندول بالتأرجح عائدًا إلى المستوى الأدنى دون تغيير قطبيته. هذا ما يحققه جميع الأفراد الذين بلغوا أي درجة من ضبط النفس، سواءً فهموا القانون أم لا. هؤلاء الأشخاص ببساطة "يرفضون" أن يتأرجحوا عائدين إلى بندول المزاج والعاطفة، وبتأكيدهم الثابت على التفوق، يظلون مستقطبين على القطب الإيجابي. بالطبع، يبلغ المرشد درجة أعلى بكثير من الكفاءة، لأنه يفهم القانون الذي يتغلب عليه بقانون أعلى، وباستخدام إرادته، يبلغ درجة من الاتزان والثبات العقلي يكاد يكون من المستحيل تصديقها على جزءٌ ممن يسمحون لأنفسهم بأن يتأرجحوا ذهابًا وإيابًا بفعل بندول المزاجات والمشاعر العقلية.

مع ذلك، تذكر دائمًا أنك لا تُدمر مبدأ الإيقاع حقًا، فهو غير قابل للتدمير. إنك ببساطة تتغلب على أحد القوانين بموازنته بقانون آخر، وبالتالي تحافظ على التوازن. قوانين التوازن والموازنة سارية المفعول على المستويين العقلي والفيزيائي، وفهم هذه القوانين يُمكّن المرء من أن يبدو وكأنه يُسقط القوانين، بينما هو في الواقع يُمارس موازنة.

91

"لا شيء يُفلت من مبدأ السبب والنتيجة، ولكن هناك مستويات عديدة للسببية، ويمكن للمرء استخدام قوانين المستوى الأعلى للتغلب على قوانين المستوى الأدنى." - الكيباليون.

بفهم ممارسة الاستقطاب، يرتقي الهرمسيون إلى مستوى أعلى من السببية، وبالتالي يُوازنون قوانين المستويات الأدنى من السببية. بتجاوزهم مستوى الأسباب العادية، يصبحون، إلى حد ما، أسبابًا بدلًا من أن يكونوا مجرد مُسببين. وبقدرتهم على التحكم في أمزجتهم ومشاعرهم، وبقدرتهم على تحييد الإيقاع، كما شرحنا سابقًا، يتمكنون من الفرار من جزء كبير من عمليات السبب والنتيجة على المستوى العادي. ينقاد عامة الناس، مطيعين لبيئتهم؛ فإرادات ورغبات الآخرين أقوى منهم؛ وتأثيرات الميول الموروثة؛ وإيحاءات مَن حولهم؛ وغيرها من الأسباب الخارجية؛ التي تميل إلى تحريكهم على رقعة شطرنج الحياة كبيادق. وبتجاوزهم هذه الأسباب المؤثرة، يسعى الهرمسيون المتقدمون إلى مستوى أعلى من الفعل العقلي، وبالسيطرة على أمزجتهم وعواطفهم ودوافعهم ومشاعرهم، يخلقون لأنفسهم شخصيات وصفات وقوى جديدة، يتغلبون بها على بيئتهم العادية، وبالتالي يصبحون عمليًا لاعبين بدلًا من مجرد بيادق. هؤلاء الناس يُساعدون على لعب لعبة الحياة بفهم، بدلًا من أن تُحركهم قوى وإرادات أقوى. إنهم يستخدمون مبدأ السبب والنتيجة بدلًا من أن يُستغلوا من قِبله. بالطبع، حتى أصحاب المقامات العليا يخضعون لهذا المبدأ كما يتجلى في المستويات العليا، أما في المستويات الدنيا من النشاط، فهم أسياد لا عبيد. كما يقول الكيباليون: "الحكماء يخدمون في أعلى، لكنهم يحكمون في أدنى. يطيعون القوانين الصادرة من فوقهم، ولكن على مستواهم الخاص، وعلى من هم دونهم، يحكمون ويصدرون الأوامر. ومع ذلك، فهم بذلك يشكلون جزءًا من المبدأ، بدلًا من

معارضته. الحكيم ينسجم مع القانون، وبفهمه لحركاته يُفعّله بدلًا من أن يكون عبدًا أعمى له. وكما يتقلب السباح الماهر هنا وهناك، ذهابًا وإيابًا كما يشاء، بدلًا من أن يكون كالجذع الذي يُحمل هنا وهناك - كذلك الحكيم مقارنةً بالإنسان العادي - ومع ذلك، فإن كلًا من السباح والجذع؛

92

الحكيم والأحمق، يخضعان للقانون. من يفهم هذا فهو على طريق الإتقان." - الكيباليون.

ختامًا، دعونا نلفت انتباهكم مجددًا إلى البديهية الهرمسية: "التحويل الهرمسي الحقيقي فن عقلي." - الكيباليون. في البديهية المذكورة أعلاه، يُعلّم الهرمسيون أن التأثير العظيم في بيئة الإنسان يُنجز بالقوة العقلية. ولأن الكون عقليٌّ بحت، فلا يمكن أن يُحكم إلا بالعقل. وفي هذه الحقيقة، نجد تفسيرًا لجميع ظواهر ومظاهر القوى العقلية المختلفة التي جذبت الكثير من الاهتمام والدراسة في السنوات الأولى من القرن العشرين. وخلف تعاليم الطوائف والمدارس المختلفة، يبقى مبدأ الجوهر العقلي للكون ثابتًا إلى الأبد. إذا كان الكون عقليًا في جوهره، فإن التحول العقلي لا بد أن يُغير ظروفه وظواهره. وإذا كان الكون عقليًا، فلا بد أن العقل هو القوة العليا المؤثرة في ظواهره. وإذا فُهم هذا، فإن جميع ما يُسمى "معجزات" و"عجائب" تُرى بوضوح على حقيقتها.

"الكل هو العقل؛ الكون هو العقل." – الكيباليون

نهاية الكتاب